الفصل الثاني

- الزراعة في مصر والشام:

مثلت الزراعة الركن الأول والأساسي للنشاط الاقتصادي، والقاعدة الرئيسية الثابتة في البناء الاقتصادي، لأنها مصدر للغذاء للسكان، وتعتبر أيضاً الحرفة الأولي لغالبية السكان، وتقوم عليها الكثير من الصناعات، لما توفره من مواد خام، كما تعتبر الزراعة قوام التجارة سواء الداخلية أو الخارجية وتعتمد الزراعة بشكل أساسي على المياه العذبة، والتربة الخصبة الصالحة للزراعة، وتمثلت المياه العذبة في مياه الأنهار والترع والقنوات ومياه الآبار والعيون والبرك والبحيرات العذبة ومياه الأمطار، أما التربة الخصبة فهي متوفرة في مصر في منطقة الدلتا ووادي النيل، و التي تعد أفضل وأجود الأراضي الزراعية في مصر، نظراً لأنها تكونت نتيجة رواسب طينية من نهر النيل، أما تربة بلاد الشام فرغم أنها صخرية ومعظمها جبال وهضاب ومرتفعات، إلا أن أراضيها خصبة وذلك في الوديان والسهول المنبسطة، وقد ساهم ذلك التنوع في التضاريس وفي مصادر المياه إلى تنوع المحاصيل الزراعية تبعاً لاختلاف التربة، فهناك محاصيل صيفية ومحاصيل شتوية تبعاً لاختلاف المناخ ولكمية الأمطار.

يعد نهر النيل مصدر المياه العذبة للزراعة في مصر، نظراً لكونها جافة لا تسقط عليها الأمطار إلا في فصل الشتاء فقط، ولذا كان ومازال نهر النيل مؤثراً على الحياة الزراعية في مصر، كما يعتبر أطول أنهار العالم، وقد بلغ عرضه حوالي ميل تقريباً في بعض المناطق، وفي مناطق أخرى عشرة أميال، ومن القاهرة إلى الحبشة يصبح النيل عميقاً، ولكن عند القاهرة يقل عمقه، وفي الشتاء تقل المياه فيه بينما تزيد في فصل الصيف[٣٢٣]، وانقسم النيل بعد القاهرة بحوالي ٢٦ ميل إلى فرعيين هما رشيد ودمياط، ويصبان في البحر المتوسط، وتعتبر منطقة الدلتا ووادي النيل أخصب المناطق الزراعية، ولذا يعيش فيها عدد كبير من السكان[٣٢٤]، ولولاه لظلت مصر بلداً

([323]) Souriano, Treaties on the holy Land , p.193.

([٣٢٤]) الوزان، وصف أفريقيا، ٥٦٢ ؛

Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard , p. 75 , Ghistele , Voyage en

صحراوية لا زرع فيها، وذلك لما يجرفه نهر النيل من طمي يترسب على الضفتين [٣٢٥].

كان فيضان النيل مجال اهتمام الدولة والشعب على حدٍ سواء، حيث كانوا يراقبون ميعاده ويستعدون له ويحسبون حسابه. يبدأ فيضان النيل عادة في فترة الصيف، من بداية شهر بؤونة (يونيو – حزيران) إلى شهر بابة (سبتمبر – أيلول) وقت عيد الصليب[٣٢٦]، ثم تبدأ مياه الفيضان في الانحسار عن وجه الأرض في ٢٠ بابه (سبتمبر – أيلول)، أي أن مدة الفيضان حوالي ٣ شهور و٢٥ يوماً[٣٢٧].

ذكر منديفيل Mandeville "أنه كان يمكن تحديد زيادة النيل أو نقصانه وفقاً لنزول الشمس وحركتها، فعندما تدخل الشمس مدار السرطان يرتفع النيل، لأنه برج مائي فيكثر الماء ويسبب الضرر والأذى للناس والأراضي الزراعية، وإذا دخلت الشمس برج الجوزاء يكون النيل ناقصاً"[٣٢٨]، وكانت الزيادة المثلى لنهر النيل ١٦ ذراعاً، فإذا وصل إلى ذلك الرقم استبشر الناس خيراً، وهي أيضًا علامة الوفاء التي يستحق عندها الخراج للأراضي الزراعية، فإذا جاوزها وزاد إلى ١٧ذراعاً زاد النفع للبلاد، لأنه بذلك يروي جميع الأراضي، فإن زاد حتى وصل ١٨ذراعاً غرقت الأرض بالماء ولا تصلح للزراعة، وتلك الزيادة كارثة حقيقية فقد كانت تسبب غرق الأراضي الزراعية، وفساد المحاصيل، وإذا قلت عن ١٦ ذراعاً جفت الأرض، ولذلك كان أفضل زيادة للنيل هي ١٦ذراعاً [٣٢٩].

Egypte ,p p.102-103.

(325) Potvin , Oeuvres de Ghillebert , p.123, Schefer, Le Voyage de Jean Thenaud ,p.30, Ghistele , L.O.C

(٣٢٦) ابن بطوطة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت ١٩٦٠، ص ٤٠ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، ج٣، ص ٢٩٢ ؛

Souriano , Treaties on The Holy Land ,p.194 , Frescobaldi , A visit to The Holy Land , p. 43 , Poloner , (J.) , Description of the Holy Land 1421 , trans by Aubrey Stewart , in P.P.T.S , vol 6 , London , 1894 , p. 41.

(٣٢٧) المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٩٦.

(٣٢٨) المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٩٦، Wright , Early travelers in Palestine , p. 150

(٣٢٩) المسعودي، أبى الحسن على بن الحسين بن على، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، بيروت، ١٩٨٧م، ص٣٤٢؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص ٩٥-٩٦ ؛

أما ناصر خسرو فذكر أن الزيادة المثلى لفيضان النيل أن تكون ١٨ ذراعاً، وإذا قلت عن ذلك أصبح النيل ناقصاً ويمتنع السلطان عن أخذ الخراج من الأرض.[٣٣٠]، كما حدد الرحالة المسلم عبد اللطيف البغدادي طريقة لتقسيم مناسيب الفيضان، حيث اعتبر أن هناك نهايتين للفيضان هما، (نهاية الضرورة، ونهاية الإفراط)، وبدايتين هما (بداية الضرورة، وبداية الإفراط)، وأوضح أن مقدار ١٨ ذراعاً كان الحد المناسب لري البلاد وهي النهاية الضرورية، أما ٢٠زراعاً فكان نهاية الإفراط، ومن الممكن أن تكون نهاية الإفراط هو ٢١ ذراعاً أما بداية الإفراط فهي ما يقل عن ١٦ذراعاً، ويعتبر ذلك بداية الضرر، لأنه يؤدي إلى القحط والجفاف، وتروى تلك النسبة نصف الأراضي الزراعية في مصر وتنتج البلاد ما يكفيها لمدة عام ويتم ري باقي البلاد بما يزيد عن ١٦ذراعاً حتى إذا وصلت إلى ١٨ذراعاً رويت كل الأراضي وأنتجت ما يكفي لمدة سنتين فأكثر وإذا نقصت عن١٦ذراعاً فإنها لا تكفي لري كل الأراضي [٣٣١].

ثم أوضح القلقشندي ذلك أيضاً حيث قسم مناسيب الفيضان إلى ثلاثة أقسام هي:

١- متقاصرة: وهي ١٦ ذراعاً (أي أن مياه النيل تقصر عن ري جميع الأراضي)
٢- متوسطة: وهي ١٧ ذراعاً (كافية لري البلاد كلها)
٣- عالية: ما فوق ١٨ ذراعاً وربما زاد للعشرين (تسبب غرق البلاد)[٣٣٢].

ولكن في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي كانت نسبة ١٦

السيوطي، الحافظ جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج ٢، تحقيق محمد أبو الفضل، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٣١٠،

Adler , Jewish Travelers ,p. 171 , Frescobaldi , A visit to The Holy Land , p.43.

(٣٣٠) ناصر خسرو، سفرنامة، ترجمة، يحي الخشاب، الهيئة العامة، ١٩٩٣ م، ص ٩٦.

(٣٣١) البغدادي، احمد بن عبد الله بن عبد اللطيف البغدادي، رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر، تحيق عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ط ٢، الهيئة العامة، ١٩٩٨ م، ص ١٢٥-١٢٦.

(٣٣٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٠٠.

ذراعاً لا تكفي لري الأراضي بل كانت تحتاج إلى منسوب يصل إلى ٢٠ذراعاً، وذلك لعدة أسباب منها ما يذكره المقريزي بعد عام ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م بأنه إذا بلغ النيل في سنة إصبعاً من عشرين (أي أقل من العشرين بمقدار إصبع) لا يعم الأراضي كلها، لما قد فسد من الجسور [٣٣٣]، والسبب الآخر هو الارتفاع المستمر لمنسوب الأراضي الزراعية بسبب ما يترسب على وجه الأرض من الطمي المجلوب مع الفيضان.[٣٣٤] هكذا اختلفت المصادر في تحديد حد وفاء النيل ولكننا نخلص من ذلك العرض أن ١٦ ذراعاً هي علامة الوفاء ويستحق وقتها جباية الخراج، ويمكن أن يصل إلى ١٧ذراعاً، ولا يسبب ضرراً أو خوفاً بل تسمح تلك النسبة بري جميع الأراضي ولكن إذا نقصت عن ١٥ذراعاً مثل ذلك هبوطا شديداً للنيل أما الرقم ١٨ مثل ارتفاعا فياضاً من المؤكد أنه كان يسبب ضرراً بالغاً للبلاد كلها.

لا شك أن هبوط النيل عن حد الوفاء أو زيادته كان يمثل خطراً حقيقياً ومؤثراً على الحياة الاقتصادية وكارثة قومية تؤثر على الجميع، فإذا قصر النيل عن الوفاء فات أوان الزراعة، وإذا زاد عن الحد أغرق البلاد وتأخرت الزراعة، فعندما يقل يسبب قلقاً للناس، وينتابهم الخوف والذعر، ويسارعون لتخزين الغلال، وترتفع الأسعار أكثر من المعتاد، ويتزاحم الناس على الأفران وحوانيت الغلال، وتضطرب الأحوال، ويشتد البكاء،ويزداد عدد الفقراء، وتحدث المجاعة ويضطر الناس إلى أكل الكلاب والقطط وسائر الدواب، أو للهجرة من القرى للمدن للبحث عن الطعام. وقد عاصر الرحالة بيلوتي الكريتي Piloti de Crete الذي زار مصر في بداية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي إحدى تلك المجاعات، التي نتجت عن هبوط منسوب النيل، وسببت تلك المجاعة وفاة عدداً لا يحصي من السكان في المدن والقرى[٣٣٥].

كانت أول مجاعة في عصر سلاطين المماليك بسبب هبوط النيل عن الحد

([٣٣٣]) المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٩٦.

([٣٣٤]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٢٩٦.

([335]) Dopp , Le Egypt , p. 20.

المطلوب عام ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م حيث توقفت زيادة النيل، وأدى ذلك إلى ارتفاع أسعار الغلال، وقلة الخبز في الأسواق وكاد أن يختفي، وأكل الناس حشائش الحقول وأوراق اللفت والكرنب، واستمرت الأسعار في الزيادة حتى دخلت السنة الجديدة بمحاصيلها الجديدة، وهبطت الأسعار وانتهت الأزمة.[٣٣٦]، وأستطاع الظاهر بيبرس (٦٥٨ – ٦٧٦ هـ) (١٢٦٠ – ١٢٧٧ م) احتواء الأزمة، حيث أمر بجمع الحرافيش والفقراء وكان عددهم نحو ٢٥٠٠ وفرقهم على الأمراء، وأخذ لنفسه منهم جانباً، وأضاف لولده الملك السعيد جانباً، وأمر أن يعطى كل فقير ما يكفيه لمدة ثلاثة شهور[٣٣٧]، ولكن جاءت أزمة أخرى ما بين عامي ٦٩٤ – ٦٩٥ هـ/١٢٩٤م-١٢٩٥م أثناء حكم السلطان كتبغا (٦٩٤ -٦٩٦ هـ) (١٢٩٤ -١٢٩٦م)، حيث بلغت زيادة النيل في أول توت (أغسطس) ١٥ذراعاً و١٨ إصبعا أي لم يصل إلى ١٦ ذراعاً الحد المطلوب، ثم هبط ولم يزد بعد ذلك، فتشققت الأرض، ووقع الغلاء بمصر وعم ذلك الغلاء سائر البلاد الشامية ومكة والمدينة لمدة عام كامل، وكان الناس يأكلون الكلاب والقطط، وأعقب ذلك وباء عظيم مات فيه عدد كبير لا يحصى وخلت بعض القرى من سكانها. [٣٣٨]، وفي عام ٧٧٥ هـ -١٣٧٣م توقف النيل عن الزيادة والوفاء، ثم هبط إصبعيين، فضج الناس وارتفعت الأسعار، وقلت كمية الغلال، واختفى الخبز من الأسواق، وبلغ ثمن إردب القمح من ٧٠ إلى ١٢٠ درهماً ومن الشعير ٨٠ درهماً[٣٣٩]. وتتوالى سنوات القحط والمجاعات على مصر بكثرة طوال عصر سلاطين المماليك بسبب قصور النيل عن الوفاء[٣٤٠].

([٣٣٦]) المقريزي، السلوك، ج ١ ق ٢، ص ٥٠٦.

([٣٣٧]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٣١٩ ؛ بيبرس المنصوري، مختار الأخبار، ص ٢٦ - ٢٧.

([٣٣٨]) بيبرس المنصوري، مختار الأخبار، ص ١٠١ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ص ٣٩٠ – ٣٩١ ؛ العيني، عقد الجمان، ج ٣، ص ٢٧٥.

([٣٣٩]) العسقلاني، إنباء الغمر، ج ١، ص ٧٦ – ٧٧

([٣٤٠]) مزيد من التفاصيل عن المجاعات، انظر: المقريزي، السلوك، ج٣ ق١، ص ٣٠٣ ؛ ٤٠٩ ؛ ٥٧٥ ؛ ٦٠٠ ؛ ج٣ ق٢، ص ٧٦٩ ؛ ٨٢٦ ؛ ٨٩١ ؛ ج٣ق٣، ص ١٠٠٣ ؛ ١١١٩ ؛ ابن تغري

أنشأت السلطات الحاكمة مقياساً للنيل لتحديد مقدار ارتفاع مياة النيل منذ العصر الفرعوني، وبعد دخول العرب واستقرارهم في مصر استمروا في استخدام المقياس، وأقاموا مقاييس أخرى جديدة في أسوان ودندرة ومقياساً في حلوان، وآخر مقياس كان عند جزيرة الروضة وعرف بالمقياس الهاشمي، ثم أحدث الظاهر بيبرس تطورات عليه [٣٤١]، والمقياس عبارة عن عمود رخامي مرتفع وكبير الحجم لونه بنفسجي أو مائل للاحمرار وبه عدة علامات لتحديد مقدار منسوب مياه النيل[٣٤٢]، وتلك العلامات مقسمة إلى عدد متساو من الأذرع لعمق الحفرة التي فيها أي حوالي ١٧ذراعاً، وعندما يزيد النيل يدخل الماء في القناة ويصل إلى الحفرة ويزيد يومياً بمقدار إصبعيين وفي يوم ثلاثة أصابع وفي يوم آخر نصف ذراع. [٣٤٣] وقد وصف لنا المقريزي وصفاً توضيحياً للمقياس، فهو عبارة عن عمود رخامي أبيض مثمن الشكل يوضع في مكان ينحسر فيه الماء عند انسيابه وذلك العمود مفصل على ٢٢ ذراعاً كل ذراع مقسماً إلى ٢٤ قسم متساوية تعرف بالأصابع ما عدا ١٢ ذراعاً الأولي فإنها مفصلة على ٢٨ إصبعاً لكل ذراع[٣٤٤].

كان هناك عند المقياس موظفون مختصون بالتحقق من منسوب المياه وتحديد ارتفاعها أثناء الليل والنهار، وكانوا ينقلون الأخبار يومياً للناس في الشوارع، حيث كان يحمل هؤلاء الموظفون أو الفرسان أعلاماً أو مناديلاً صفراء اللون أطلق عليهم(مناديو البحر)، وهم يتجولون في شوارع القاهرة، ليبشروا الناس بالزيادة، وينالوا على ذلك هدايا من الصناع والتجار حتى نهاية مدة الفيضان، وخاصة إذا وصل النهر إلى الحد المطلوب، لأنهم بذلك يبعثو فيهم البهجة والسرور. [٣٤٥] وهكذا

بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص ٢٠٤ -٢٠٩ ؛ ٣١١، ج١١،ص ١١ ؛ ٢٥١ ؛ ج١٣، ٥٢ ؛ ١٧٨ ؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ص٣٠١ ؛ ٣٠٣ ؛ ٣٠٥ -٣٠٦ ؛ ٣٠٨ ؛ ٣٠٩.

([٣٤١]) المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٩٢ -٩٥.

([342]) Dopp , Le Egypt , p. 20 , 125.

([٣٤٣]) الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٨٨.

([٣٤٤]) المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٩٥.

([٣٤٥]) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٧٣ – ٧٤ ؛ الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٨٨ – ٥٨٩.

كان المقياس لا يستغنى عنه لأنه يحدد وينظم الحياة الزراعية، لأن مصر تعتمد بشكل أساسي على منسوب النيل ولا تروى أراضيها بغيره [٣٤٦].

كان السلطان عندما يصل النيل إلي حد الوفاء يأمر بقطع السد الذي يحجز الماء ليسمح بدخول الماء إلى الأراضي الزراعية ويقيم الجميع احتفالاً عظيماً في ذلك اليوم، حيث يخرج السلطان والأمراء في موكب عظيم حتى يصل إلى المقياس، ويكسر السد لتغمر المياه كل الأراضي، وتغلق الأسواق والحوانيت، ويقيم كثير من الناس حول النيل، ويستخدمون المراكب للتنزه، ويذهب الجميع لمشاهدة الماء داخل القناة، وهم يغنون بكل سرور وفرح، لأن النيل هو سر الحياة في مصر وإليه ترجع الثروة الهائلة التي تتمتع بها مصر ولولاه لأصبحت البلاد جرداء [٣٤٧]، وكان الاحتفال يمر بعدة مراحل، فعندما يصل ارتفاع النيل إلى ١٦ ذراعاً يعلق على الشباك الكبير من الجهة الشرقية بدار المقياس ستارة صفراء، فيعلم الناس بالوفاء، وكانت تلك الليالي من أعظم ليالي مصر والقاهرة، وفيها كان الناس يوقدون القناديل والشموع، ويحضر كبار رجال الدولة والأمراء وقارئو القرآن الكريم والمغنون ينشدون طوال الليل [٣٤٨]، وفي صباح اليوم الثاني كان يمد سماط (مائدة) عظيم من اللحوم والفاكهة والحلوى، ويحضر السلطان، وكان العامة يتخطفون الطعام وكانوا أحيانا يضطرون لدفع ثمن اللحوم والحلوى يوم الاحتفال، ولكن السلطان المنصور قلاوون قد ألغى ذلك وجعل تكاليفه من بيت المال [٣٤٩].

Adler, Jewish Travellers,p.171, Potvin , Oeuvres de Ghillebert , p. 12. -21, Dopp , Le Egypt , pp.20

([٣٤٦]) البلوي، خالد عيس البلوى المغربي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق الحسن السائح، الدار البيضاء، ١٩٧٠م، ص ٢٢٠.

([٣٤٧]) السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣١٠ ؛ الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٩٠،

Adler ,Jiwish Travelers , p. 171 Dopp , Le Egypt , p. 20 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , pp. 206 -207.

([٣٤٨]) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ٨٧ ؛ ابن دقماق، الانتصار، ج ٤، ص ١١٤ – ١١٥.

([٣٤٩]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٣٦٣.

كان السلطان يخرج في موكبه من قلعة الجبل، وفي خدمته قادة الجيش والأعيان والأمراء في المراكب المزينة بالأعلام والزينات الملونة، والطبول تدق حتى يصل الموكب إلى دار المقياس، ثم يمد السماط وبعد الانتهاء من الطعام كان يذاب الزعفران في ماء الورد في إناء من الفضة، ويصب على عمود المقياس، ثم يفرق السلطان الخلع والهدايا على الأمراء والولاة [٣٥٠] وتمتلئ صفحة النهر بالمراكب العديدة، والقوارب المليئة بالمتفرجين يسيرون خلف موكب السلطان والأمراء حتى يدخل الموكب فم الخليج، ثم يصل إلى موقع سد الخليج، حيث يوجد نائب السلطنة ومعه بعض كبار الأمراء، وهنا يتوجه السلطان بحصانه من فم الخليج إلى السد الترابي، حيث ينزل من حصانه، ويمسك بمعول من الذهب الخالص ويضرب السد ثلاث ضربات، حتى ينكسر ويجري الماء في الخليج، ثم ينصرف السلطان إلى القلعة [٣٥١].

لم يقتصر الأمر على الاهتمام بالنيل ومقياسه والاحتفال به، بل اهتم السلاطين المماليك بالمشروعات التي ساعدت على المحافظة على مياهه وعلى ري الأراضي، فأنشئوا شبكة من القنوات والترع والجسور المنتشرة في أرجاء البلاد، وكذلك الاهتمام والعناية بتطهير القنوات والمصارف للمحافظة على مياه النيل لاستخدامها في الزراعة. وقد لاحظ بعض الرحالة الأوربيين وجود خلجان وقنوات على نهر النيل، مثل خليج الإسكندرية الذي أنشئ منذ عصر الإسكندر الأكبر وتجديده وحفره عدة مرات في عهد السلاطين المماليك، كانت أولها عام ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م في عهد الظاهر بيبرس، عندما انسدت فوهته بالرمال والطين وقل الماء في الإسكندرية فأمر بإعادة حفره، وباشر ذلك بنفسه حتى جرى فيه الماء[٣٥٢]، ثم في عهد الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٠٠ م، وتم تنظيف المجرى حتى جرى الماء ودخلته السفن بالغلال والمتاجر، وتمت الاستفادة من مائه في الزراعة معظم أيام السنة[٣٥٣]،

([٣٥٠]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٤، ص ٢٩٨ ؛ ناصر خسرو، سفر نامة، ص ١١١-١١٢.

([351]) Le Caire , tome 26 , p.110. (Dopp , Le Egypte , p. 20 ,

([٣٥٢]) المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٢٧٦ ؛ ابن عساكر، حسن المناقب ص ١٠٦.

([٣٥٣]) المقريزي، الخطط، ج١، ص ٢٧٧ ؛ Wolff , How Many Miles to Babylon ? , p. 99.

كما تم حفر قناة تخرج من خليج الإسكندرية سميت بقناة فوه طولها ٩٠٠ ميل وكانت تسير فيها السفن والمراكب التجارية [٣٥٤]، أما فريسكو بالدي Frescobaldi قدر طولها بحوالي من ٥٠ إلى ٥٥ ميلاً واتساعها من ١٥ إلى ١٦ ذراعاً، وتأخذ مياهها من نهر النيل أو، من الخليج حيث تبدأ القناة، وتمد الإسكندرية وما حولها بالماء العذب، وتروي الحقول والحدائق في المدينة وضواحيها[٣٥٥].

أما عن مصادر المياه التي اعتمدت عليها الزراعة في بلاد الشام فقد تنوعت، منها مياه الأمطار، والأنهار، والعيون، ونتيجة لتميز السهل الساحلي باستواء سطحه نسبياً، فإن عملية إنشاء قنوات الري كانت أسهل من المناطق الهضبية، ومن أنهار بلاد الشام، نهر قاديشا الذي كان يتدفق من سطح جبل لبنان وزود طرابلس بالمياه ويصبح فياضاً عندما تتجمع فيه المياه وتشكل نهراً متدفقاً، وتسقي مياهه كل الحدائق والحقول والسهول الواقعة بين طرابلس ولبنان، ويزود سكان الريف بكميات ممتازة من المياه العذبة [٣٥٦]، وكذلك نهر الأردن الذي يتكون من جدولين أو نهرين صغيرين في الأساس هما جور، ودان، وينبعان من سطح جبل لبنان، ويلتقيان معاً أمام بوابة المدينة ويشكلان نهر الأردن، ويستمر في السير مسافة طويلة، وفي منتصف الطريق بين بانياس وبحيرة طبرية يدخل النهر أحد السهول، ويشكل بركة وقت ذوبان الثلوج في لبنان، ويصبح جافاً تقريباً في الصيف، وتنموا الحشائش والأشجار بكثافة[٣٥٧]

اعتمدت الزراعة في دمشق على نهرى فرفر Far far وأبانه Abana وهما يرويان الأراضي الزراعية المزروعة بالقمح والكروم على مدار العام [٣٥٨]، ولكن

([354]) Souriano , Treaties on the holy Land , p. 194.

([355]) Frescobaldi , A visit to The Holy Land , p. 96.

([٣٥٦]) بورخارد من جبل صهيون، وصف الأراضي المقدسة، ترجمة سعيد البيشاوي، عمان، ١٩٩٥، ص ٥٢ ؛ انظر أيضًا، محمد كرد علي، خطط الشام، ج٣، دمشق، ١٩٢٥ م، ص ١٥٠؛ Souriano ,op.cit, p. 177

([٣٥٧]) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ٦١ -٦٤ ؛

Ludolph , Description of the Holy land , p. 119 , Schiltberger , The bondage and Travel , p. 60.

([358]) Loudolph , Description of the Holy land , p. 131 , , Schefer , Le

العمري يذكر أن نهر دمشق الأساسي هو نهر بردي الذي ينبع أساساً من عينين من سطح الجبل بدمشق ثم يتفرع ذلك النهر إلى عدة فروع أخرى وعليه تنمو البساتين والحقول [٣٥٩] والمصدر الآخر للمياه، هو مياه الأمطار سواء كانت الشتوية أو الصيفية، و كان الأهالي يقومون بتخزين مياه الأمطار والثلوج في خزانات أو صهاريج، تتصل بعضها ببعض عن طريق مصارف تحت الأرض، أو أنابيب لتصل إلى المنازل والأراضي الزراعية [٣٦٠]، ثم الينابيع والبحيرات العذبة والآبار، ففي بيت المقدس يوجد بئر سليمان الذي كان يفيض بالماء من تحت الأرض في وادي يوشفات كل صباح حتى الظهر، ثم يهبط مرة أخرى[٣٦١]، وكذلك عين القديسة مريم في الناحية اليمنى من بلدة فاج، وفوق جبل الأربعين كانت توجد بحيرات عذبة تنحدر من العين الموجودة بالأعلى وتروي بساتين الفاكهة على الجبل [٣٦٢]، وقرب الخليل بئر سماه المسلمون بئر إبراهيم، وبالقرب منه بئر إسحاق وبعيداً عنه قليلاً غدير eshcal وكانت تنمو حوله أشجار العنب ونباتات أخرى[٣٦٣]، وعلى بعد ٨ فراسخ شمال عكا أمكن مشاهدة البئر الرائع المسمى المفرد ولكنه ليس مفرداً بل هو عبارة عن ثلاثة ينابيع لها نفس الشكل والحجم والنبع الرئيسي عمقه حوالي ٣٤ ذراعاً والآخران عمقهما ٢٢ ذراعاً وهم جميعاً محاطون بجدران مربعة مبنية من صخور وتروى منه حدائق الكروم وبساتين التين وحقول الزيتون وقصب السكر [٣٦٤].

Voyage de Jean Thenaud , 113.

([٣٥٩]) العمري، مسالك الأبصار، ج ٢، ص ١٨٣ – ١٨٤ ؛ البدري الدمشقي، أبي البقاء عبد الله بن محمد البدري المصري الدمشقي، نزهة الأنام في محاسن الشام، القاهرة، ١٣٤١ هـ، ص ٩١ -٩٣.

([٣٦٠]) القزويني، زكريا بن محمد بن محمود القز ويني، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، ١٩٧٩م، ص ١٦٠ ؛ بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٤٧، بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ٦٥،

Fabri ,The Wandering , vol 2 part 1, p. 228 , Dopp , Le Egypt , p81-82.

([361]) Adler , Jewish Travelers, p. 240.

([362]) langnon (B.) , Le Saint Voyage de Jehrusalem de Seigneur de A ngleur , A.U.C,1878,pp.19,38.

([363]) Adler ,op.cit , p. 249.

([٣٦٤]) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ٤٢ – ٤٣ ؛

أما بحيرة طبرية (بحر الجليل) امتد في المنطقة المحيطة بها أشجار النخيل الكبيرة وكروم العنب والزيتون وتتميز تلك المنطقة بخصوبة التربة [٣٦٥]، كذلك بركة سلوان التي كانت تروي ما حولها وتعد الحقول هناك من أخصب الأراضي الزراعية في فلسطين وتنتج في السنة أربعة محاصيل لتوفر المياه اللازمة وأهمها القمح الذي اعتاد الحجاج والمسافرون أن يأخذوا منه طعاما لهم، كما أن المنطقة كانت عامرة ببساتين الفاكهة، مثل التين والعنب واللوز والجوز وأشجار الصنوبر [٣٦٦].

أما نظام الري، فهناك نوعين هما ري الحياض والري الدائم، فعندما كان منسوب ارتفاع النيل يصل إلى ١٦ ذراعاً، كان يتم فتح سد الخليج ويجرى الماء ليروي كل الأراضي الزراعية، ثم كانت الأرض تترك لمدة ١٥ يوماً حتى تمتص المياه، ويقوم الفلاحون ببذر البذور بدون حرث ويغطونها من الرطوبة والندى [٣٦٧]، وعندما تقل المياه تدريجاً تفتح السدود الأخرى التي تغلق الترع والقنوات ليتم ري بقية الأراضي الزراعية، وفي وقت الفيضان وبعد فتح السدود والترع والخلجان كان ماء الفيضان يغمر وجه الأرض، لتصبح الأرض آنذاك بحراً واسعًا وتبدو القرى وكأنها جزر كما لو كانت منعزلة، ولا يمكن الوصول إليها إلا بواسطة القوارب أو على ظهور الحيوانات وفوق الجسور الممتدة، وبعد أن تغمر المياه الأراضي، كان الفلاحون يقومون بإغلاق المداخل، ومع مرور الوقت تجف المياه وتظل الأرض مروية ويبدأ الفلاحون في الزراعة [٣٦٨]، وذلك النظام عرف بنظام الحقل الواحد، أي أن الأرض كانت تزرع جميعها مرة واحدة كل سنة، وذلك عكس بلاد الشام، حيث كان الفلاحون يتبعون دورة زراعية تعتمد على نظام الحقلين، بمعنى أن الفلاح كان يقوم بتقسيم الأراضي الزراعية قسمين، يزرع القسم الأول ويقوم بحرث وتقليب القسم

Poloner , Description of the Holy Land , p. 31.

([٣٦٥]) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ٩١.

([366])Fabri ,The Wandering , vol 1 part 2 , p. 279.

([٣٦٧]) بنيامين التطيلي، رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة عزرا حداد، تقديم عبد الرحمن الشيخ، الإمارات، ٢٠٠٢ م، ص ٣٥٢ ؛

Souriano ,Treaties on the holy Land , p. 193 , See Also, Wolff , How many miles? , p. 98.

([368]) Dopp , Le Egypt , p. 22.

الثاني ويتركه لتصل الشمس إلى باطنه، ثم يزرعه بعد ذلك ويريح القسم الأول [٣٦٩]، أما الري الدائم فقد عرفته مصر في بعض المناطق القريبة من مجرى النهر، مثل أراضي الدلتا الواقعة بين فرعي النيل، وهي منطقة الغربية والتي كانت تستخدم السواقي لرفع المياه لري الريف طوال العام[٣٧٠].

هناك العديد من المحاصيل الهامة مثل، الحبوب أهم المحاصيل الزراعية، لأنها تمدنا بالمواد الغذائية التي نحتاجها، وكانت تزرع في المناطق شديدة الخصوبة، ومن تلك الحبوب، القمح الذي يحصد بعد تسعين يوماً من زراعته، وكان يمكن زراعته مرتين في السنة ويعطي الفدان من ٥٠ إلى ١٠٠ إردب حسب إمكانية الأرض، وتصبح سيقانه سميكة وقوية وسنابله ناضجة وعالية الجودة [٣٧١]، ويزرع القمح من شهر بابة (سبتمبر) إلى آخر هاتور (أكتوبر) في بعض الأماكن، وفي بعض منطق الوجه البحري امتد وقت حصاده إلى آخر كيهك (نوفمبر) [٣٧٢]، كما زرع القمح في يافا مرتين في العام [٣٧٣]، ومن الحبوب أيضاً الشعير الذي قال عنه الأب سوريانوSouriano إنه أكثر انتشارًا من القمح في مناطق كثيرة من الدولة [٣٧٤] وكان يزرع في أثر القمح وغيره في الأراضي الرطبة ويتقدم زراعته على زراعة القمح بأيام، وكذلك حصاده يكون في برمودة (مارس – آذار) [٣٧٥]، كما زرعت البقول مثل الفول والعدس، ونظراً لكثرة السكان نجدهم يستهلكون كميات كبيرة منه وكثيراً ما تحدث خسائر في محصول القمح في سوريا فترسل مصر الإمدادات اللازمة من البقول والقمح إلى الشام[٣٧٦].

([٣٦٩])النويري، نهاية الإرب، ج ٨، ص ٢٥٦.

([370]) Dopp , Le Egypt , p. 28.

([371]) Frescobaldi , A visit to The Holy Land , p. 43-44.

([٣٧٢]) المقريزي، الخطط، ج ١، ص ١٦٣.

([373]) Souriano, Treaties on the holy Land, p. 38 – 39.

([374]) Ibid , p. 223.

([٣٧٥]) المقريزي، الخطط، ج١، ص ١٦٣.

([376]) Dopp , Le Egypt , p. 5.

أما قصب السكر فكان يزرع في المسافة بين القاهرة والإسكندرية على ضفاف النيل بكميات كبيرة وعالية الجودة [٣٧٧]، وكذلك في معظم موانئ الشام مثل صور وصيدا وطرابلس ويحصلون منه على أرباح مادية كبيرة [٣٧٨] وكذلك بجوار نهر الأردن توجد قرى ريفية ينمو بها قصب السكر بوفرة[٣٧٩] وزرع قصب السكر من منتصف برمهات (فبراير)، وكان يروى ثلاث مرات قبل انقضاء شهر بشنس (أبريل) [٣٨٠]، وعند زراعته كان الفلاحون يقومون بتقطيع القصب إلى عدة قطع يبلغ طول الواحدة إصبع، وذلك من أجل الحصول على عقدة في وسط كل قطعة، حيث يوجد العديد من العقد في عود القصب، ثم يقومون بغرس تلك القطع في أرض رطبة خلال فصل الربيع، وتنمو من تلك العقد قصيبات جديدة اثنتان من كل واحدة في كلا طرفي العقدة [٣٨١].

كما انتشرت زراعة أشجار الفاكهة المتنوعة في طرابلس وبيتاني وصور وصيدا وبيت المقدس وأهمها مزارع العنب، والذي تميز بجودته وحسن مذاقه وحجمه الكبير، حيث كان وزن عنقود العنب حوالي ٢٣ بوندا (رطلاً)، وكذلك جودته في صنع الزبيب [٣٨٢]، وذكر كازولا Casola أن العنب في غزة كبير الحجم ويصل وزن العنقود إلي ٣٦ رطلاً و١٢ أوقية ولم يرمثله في مكان آخر[٣٨٣] زرع أيضاً في المنطقة الواقعة إلى اليسار من وادى قدرون، كما ذكر مجير الدين وبظاهر القدس الشريف من كل جهة مزارع بها من أنواع الفاكهة من العنب [٣٨٤]، وكذلك انتشرت

([377]) Adler , Jewish Travelers , p. 164.

([٣٧٨]) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ٤٢، ٤٨، ٥٩ ؛

Poloner , Description of the Holy Land , p. 30.

([٣٧٩]) القزويني، آثار البلاد، ص ٩٩ ؛ langnon ,Le Saint Voyage , p. 37.

([٣٨٠]) المقريزي، الخطط، ج١، ص ١٦٣.

([٣٨١]) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٦٨ – ١٦٩.

([382]) Souriano , Treaties on the holy Land , p. 221.

([383]) Casola , Pilgrimage to Jerusalem , p. 240.

([٣٨٤]) مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، بيروت، ١٩٧٣ م، ج ٢، ص ٤٠٩.

مزارع الكروم في المنطقة الواقعة بين بيت لحم وأورشليم لمسافة تبلغ ثلاثة أميال[٣٨٥]، ومن الواضح أن زراعة العنب كانت من المزروعات التي اهتم بها المسيحيون المحليون في بلاد الشام، فقد أكد بورخارد أن هناك الكثير من أشجار الكروم ولكن المسلمين الذين يحكمون البلاد لا يشربون الخمور ما عدا القليل منهم سراً ولكن البعض منهم والذين يعيشون مع المسيحيين يزرعونه ليستفيدوا من بيعه لهم [٣٨٦] وشرح لنا بورخارد طريقة زراعة العنب حيث يقوم الرجل بتقليم الأشجار في الربيع إلى أي حد شكلت الكرمة عناقيد عنب وبعد ذلك يقوم مباشرة بقطع تلك الفروع التي نمت خلف العناقيد وإلقائها بعيداً ويفعل ذلك في شهر آذار (مارس) وفي شهر أبريل (نيسان)، يبدأ فرع جديد بالنمو منها مع عناقيد عنب جديدة، وعندئذ يقوم بقطع جميع الفروع التي تصل خلف تلك العناقيد وهكذا فهو يحصل على ثلاث شتلات من العنب التي تنمو جميعها متشابهة، والتي تبدأ في النمو في شهر مارس ويتم جمعها في آب (أغسطس) والتي تنمو في أبريل (نيسان) يتم جمعها في سبتمبر (أيلول) والتي تبدأ بالنمو في أيار (مايو) يتم جمعها في شهر تشرين الأول (أكتوبر) وهكذا يحصلون على ثلاث غلات من العنب سنوياً [٣٨٧].

كذلك وجدت أشجار التين والجوز والتفاح والليمون والمشمش والبطيخ والفستق والبرتقال [٣٨٨]، كما زرعت أشجار الزيتون الممتدة على مساحات واسعة وخاصة في بلاد الشام في طرابلس وبيروت وفي بيت المقدس، فوق جبل الزيتون [٣٨٩]، وكذلك أشجار النخيل التي تنمو في الأراضي الرملية وعندما يكتمل نموها يصل ارتفاعها إلى ٥٠ ذراعاً وفروعها لأعلى ويتم تقليمها كل سنتين، أما أشجار الموز التي يقول عنها الرحالة الراهب سوريانو إنها فاكهة الجنة حيث تصبح خضراء

([385]) Adler ,Jewish Travellers, p. 234.

([٣٨٦]) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٧٠ ؛ Wright , Early Travelers , p. 288.

([٣٨٧]) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٧٠ – ١٧١.

([388]) Frescobaldi , A visit to the Holy Land ,p. 42 – 54 , Souriano , Treaties on the holy Land , p. 177 , Casola , Pilgrimage to Jerusalem ,p. 240.

([٣٨٩]) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ٥١- ٥٢ ؛ Souriano , op.cit , p. 168.

اللون عند بداية النضج ثم صفراء من الداخل والخارج وذلك عند تمام نضجها، وتحتاج إلى كمية ثابتة من الماء وليس لها جذع ولكن أوراقها كبيرة و يبلغ طولها١٠ أذرع وعرضها ٢ ذراع[٣٩٠] وأوراقها مثل عشب القسط الشامي ولكنها أطول وساقها مثل جزر نبات الشمرة ولكنه اشد سمكاً وتموت وتزهر مرة واحدة في السنة. [٣٩١]

كان نبات البلسم أو البلسان يزرع في مصر والشام، ولكن أفضل زراعته كانت في مصر في منطقة المطرية، حيث وجد بها حديقة نبات البلسم، وهي شجرة صغيرة تشبه أشجار العنب الصغيرة ومرتفعة قليلاً عن الأرض بمقدار نصف ذراع، وتزدهر عليها أوراق خضراء تشبه أوراق العنب العريضة، وتتفتح الزهور في شهر أغسطس، ويتم حصاده عن طريق تقليم الأوراق دون قطع الشجرة الأصلية [٣٩٢]، وكان ذلك النبات يتأثر بالبرد، ولذلك كانوا في الشتاء يغطونه بقماش من الكتان ويروى من ماء البئر في الحديقة. [٣٩٣]

زرعت أيضاً أشجار القطن في مناطق معينة والتي تتوفر فيها مياه الري، وكان طول الشجرة يبلغ الركبة للإنسان ويزرع سنوياً وأوراقه تشبه أوراق العنب ولكنها أصغر قليلاً [٣٩٤] وقد شاهد الرحالة كازولا Casola أشجار القطن المزهرة وتم نضجه في ذلك الوقت وحان وقت حصاده [٣٩٥] ويزرع القطن في برمودة (مارس) ويحصد في توت (أغسطس)[٣٩٦].

([390]) Ibid, p.222.

([391]) Frescobaldi , op.cit ,p. 43.

- نبات القسط: هي >جذور الأوكلانديا القسط فالك " كانت فى العصور الوسطى تستخدم فى العلاج وأحيانا كبخزر فى أداء الطقوس وكانت من السلع الشرقية الهامة ومنها نوعين القسط الحلو والمر ويأتى من بلاد السند، أنظر، هايد، تاريخ التجارة، ج٤، ص١١٢-١١٣؛ ويسمى عند ابن البيطار باسم نبات الراسن ومعناه الجناح بلغة أهل الاندلس، أنظر، ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية.

([392]) Dopp ,Le Egypt ,p.29 -31 ,Ghistele,Voyage en Egypte, p. 74.

([393]) Souriano, op.cit, p.195.

([٣٩٤]) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٦٨.

([395]) Souriano Treaties on the holy Land, p.223 , Casola, Pilgrimage to Jerusalem ,p.237.

([٣٩٦]) المقريزي، الخطط، ج ١، ص ١٦٤.

- **الصناعة في مصر والشام: -**

تعتبر الصناعة من أهم أعمدة الاقتصاد والمؤثرة على حركة التجارة الداخلية والخارجية، وقد انتشرت في الدولة المملوكية صناعات عديدة، مثل صناعة النسيج والأقمشة والملابس، وصناعة الورق والزجاج والطوب، والعسل والسكر والزيوت، والأسلحة والصناعات المعدنية والخشبية المطعمة بالصدف والأحجار الكريمة، والمشغولات الذهبية والفضية وغيرها من الصناعات الأخرى، وقد ساعد على تقدم تلك الصناعات وفرة المواد الخام سواء حيوانية أو زراعية وكذلك سهولة استيراد المواد الأخرى غير المتوفرة مثل الخشب والذهب والحديد، كما كان الاستقرار السياسي والاقتصادي عاملاً مهما في نمو الصناعة وازدهار صناعات جديدة، بالإضافة إلى اهتمام السلاطين المماليك بالصناع وبتحسين الإنتاج، وتوفير الأسواق الداخلية والخارجية لتوزيع تلك الصناعات المختلفة.

كانت صناعة النسيج والأقمشة والملابس من أهم الصناعات، حيث ازدهرت صناعة الأنسجة المختلفة في مصر والشام، سواء كانت منسوجات حريرية أو قطنية أو صوفية أو كتانية، وقد شاهد بعض الرحالة انتشار تلك الصناعة في مدن عديدة، حيث ذكر أحدهم أن في الإسكندرية والقرى المجاورة لها حرفيين وصناع يعملون النسيج والبسط الرائعة بأشكال مختلفة وأنسجة أخرى ببراعة مدهشة[٣٩٧]. اشتهرت الإسكندرية بتلك الصناعة، وأصبحت أكبر مدينة صناعية في مصر أكثر من مدينتي دمياط وتنيس بسبب تعرضهما لخسائر فادحة أيام الحروب الصليبية فكانت تلك الكارثة الكبرى التي سمحت للإسكندرية بالازدهار في صناعة النسيج ثم موقعها على البحر المتوسط ومركزها التجاري الممتاز وتوافر المواد الخام اللازمة للصناعة وأهمها الحرير والصوف والكتان[٣٩٨].

([٣٩٧]) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ٤١ ؛ Ludolph , Description of the Holy Land , p. 46.

([٣٩٨]) أحمد محمد عدوان، الوضع الاقتصادي في مصر في عصر الدولة المملوكية الأولي، رسالة دكتوراة غير منشورة، آداب عين شمس، ١٩٧٢ م، ص ٢٠٦.

رأى الرحالة بورخارد في طرابلس مصانع النسيج التي يعمل فيها نساجون يصنعون الأقمشة الحريرية والكتانية العالية الجودة [٣٩٩]، وفي دمشق وجد القماش والنسيج على تعداد نقوشه وضروبه ورسومه وأنواعه منه، القماش الأطلسي بكل أجناسه وأنواعه، والقماش الهرمزي على اختلاف أشكاله وتباين أصوله، والقماش الأبيض المطرز وغيرها من أنواع الأقمشة [٤٠٠]، فضلاً عن اشتهار مدينة تنيس بوجود مصانع للنسيج، وعمل معظم سكانها بحياكة الملابس، وكان يحاك بها الثياب الشروب التي لا يصنع مثلها في البلاد وفيها ثوب يقال له البدنة بلغت قيمته ألف دينار وثوب الكتان بلغ ١٠٠ دينار نقداً [٤٠١]، و كانت الثياب الشروب تصنع في دمياط أيضًا وبلغت قيمة الثوب الذي ليس فيه ذهب حوالي٣٠٠ دينار [٤٠٢]، وهناك قرية دبيق قرب دمياط، وينسب إليها الثياب الديبقي المطرزة والعمائم الشروب الملونة والديبقي المذهب وكانت العمائم المذهبة يبلغ طولها١٠٠ ذراع وتكلفت حوالي٥٠٠ دينار. [٤٠٣]، ومن أنواع الأقمشة نجد المنسوجات الكتانية التي تصدر إلى أقطار البلاد، وكان مركز صناعتها في الإسكندرية وهو من النوع الأكثر جودة وتفوقت به الإسكندرية على غيرها من المدن على اختلاف أجناسه وأنواعه. [٤٠٤]، أما الأقمشة الحريرية فكانت تصنع من حرير القز قبل تبيضه لئلا يتغير لونه بعد ذلك، وكان الناس يخلطون الحرير الشامي مع الحرير البلدي ويبيعونه على أنه شامي، ويخلطون

([٣٩٩]) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ٥١ ؛ إير لابيدوس، مدن إسلامية في عهد المماليك، ترجمة علي ماضي، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٤٨ ؛ Poloner , Description of the Holy Land ,p. 33.

([٤٠٠]) البدري الدمشقي، نزهة الأنام في محاسن الشام، ص ٣٦٢ ؛ لابيدوس، نفسه، ص ٤٨.

([٤٠١]) المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٢٨٦ ؛ العمري، مسالك الأبصار، ج ٢، ص ١٥٨ ؛ الحميري،محمد بن بعد المنعم الحميري، الروض المعطار في خير الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠، ص ١٣٧.

([٤٠٢]) الحميري، نفسه، ص ٢٥٧ ؛ القزويني، آثار البلاد، ص ١٩٣.

([٤٠٣]) المقريزي، الخطط، ج ١، ص٣٦٥، الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص ٣٣٨.

([٤٠٤]) العمري، مسالك الأبصار، ج ٢، ص ٨٤-٨٥.

القز المصنوع ومنهم من يزيد الحرير بالنشا أو الزيت ليزيد وزنه[٤٠٥]، وقد سميت بعض الأقمشة باسم المكان الذي صنعت فيه مثل قماش الفستيان نسبة إلى الفسطاط والقماش الدمشقي نسبة إلى دمشق والقماش البعلبكي نسبة إلى بعلبك.

لكن لم تكن الحالة الاقتصادية في الدولة المملوكية حسنة طوال العصر المملوكي فقد كانت الضرائب الفادحة وسياسة الاحتكار والسياسة المالية القاسية، زادت من خطورة الحالة الاقتصادية، وأثرت بشكل واضح على صناعة النسيج أيضاً، ففي القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ذكر التاجر الرحالة بيلوتي الكريتي Piloti de Crete أن الإسكندرية أصبحت خراباً وكان بها ورش عديدة للصناعة ولكن في ذلك الوقت لم تعد المدينة مأهولة بالسكان كسابق عهدها والعمل أصبح محدوداً وقل عدد الصناع بها [٤٠٦]، أما الرحالة بولونير الألماني Poloner الذى زار الشرق عام ٨٢٥هـ/ ١٤٢١م فقد ذكر أن طرابلس كان بها حوالي ١٢ ألف حائك يصنعون الأنسجة الحريرية والصوفية ولكن قل عددهم الآن [٤٠٧]

ازدهرت الصناعات الزجاجية أيضًا في مدن معينة، مثل الفسطاط والفيوم ودمشق والخليل، حيث وجد بها أفران عديدة لصنع الزجاج بكل أشكاله وألوانه وأنواعه المختلفة ولكنه لم يكن نقياً بل أسود اللون مختلطاً بألوان أخرى [٤٠٨]، وفي مصر أيضًا اشتهرت صناعة الزجاج منذ عصور قديمة، وقد احتفظت بتفوقها في العصور الإسلامية وخاصة في العصر الفاطمي، وليس أدل على ذلك ما هو موجود في دور الآثار من المشكاوات الزجاجية والتحف البلورية والتي تمتاز بجمال أشكالها

([٤٠٥]) ابن الأخوة،محمد بن محمد بن احمد القرشي المعروف بابن الأخوة، معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق روبن ليوي، القاهرة،ب.ت، ص ١٤١.

([406]) Dopp , Le Egypt , p. 36.

([407]) Poloner , Description of the Holy Land , p. 33.

([408]) Fabri ,The Wandering , vol 2 part 2, p. 411, Frescobaldi ,A visit to the Holy Land , p.67, SeeAlso,Elinor,(M.),The Ancient Churches of old Jerusalem the evidence of the Pilgrims,London,1961, p.64.

وزخرفتها وألوانها، [٤٠٩] وكانت المادة المستخدمة لصناعة الزجاج هي الرمال التي في السويس والعباسية [٤١٠] ويؤيد ناصر خسرو انتشار مصانع الزجاج في ذلك العصر بقوله: إن البقالين والعطارين كانوا يأخذون على عاتقهم إعطاء الزجاج والأواني الخزفية والورق ليوضع فيها ما يبيعونه [٤١١].

لقد اعتنى المماليك بالصناعات الخشبية، واعتمد الصناع على الأخشاب المحلية والمستوردة وقد أبدعوا في زخرفة الأخشاب بالرسوم الدقيقة، وقد استخدم الخشب في صنع الأثاث البسيط وتغطية أسقف القصور وإصلاح السفن، وفى صنع المشغولات الخشبية المطعمة بالأحجار الكريمة والصدف والذهب والفضة، وفي مصر كانت الصناعات الخشبية تعتمد على أشجار النخيل والدردار وأشجار الجميز وغيره، لأنه كان لا يوجد في مصر سوي تلك الأخشاب وكانت تستورد الأخشاب من أوربا [٤١٢]، أما بلاد الشام فقد كانت تعتمد على أشجار الأرز والزيتون، وقد عرفت في بيت المقدس صناعات خشبية خفيفة، والتي ارتبطت بموسم الحج المسيحي، حيث تدفقت أعداد كبيرة من الحجاج الغربيين على المدينة، وهي صناعة الحفر على خشب الزيتون، وكان لدى أبناء القدس مهارة كبيرة في تلك الصناعة، حيث أتقنوها على مر الزمان فكانوا يحفرون على خشب الزيتون أشكالاً متنوعة بإتقان عجيب، وصنعوا منه أدوات الكتابة ولعب الأطفال وأدوات الزينة والهدايا ذات المعني الديني، والتي كانت تجذب نظر الحجاج المسيحيين الغربيين، وكانت تلقى رواجاً في الشراء، ومن المرجح أنه قد تخصص في صناعتها المسيحيون المحليون من الطوائف المختلفة والمقيمة في بيت المقدس[٤١٣].

([٤٠٩]) سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص ٢٩٥ ؛ أمينة الشوربجي، رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر في العصر الفاطمي، الهيئة العامة، ١٩٩٤، ص ٢٥٥- ٢٥٩.

([٤١٠]) أحمد محمد عدوان، الوضع الاقتصادي في مصر، ص ٢١٠.

([٤١١]) ناصر خسرو، سفر نامة، ص ١٢٠.

([412]) Ghistele , Voyage en Egypte , p. 60.

([٤١٣]) علي السيد علي، القدس في العصر المملوكي، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ط ١،

تركزت صناعة السكر والعسل المستخرج من القصب في مدن عديدة في مصر والشام، ففي مصر وجدت مصانع للسكر في الإسكندرية وما حولها، وفي منطقة الدلتا وسمنود وقوص ودمياط والفسطاط، وفي الشام وجدت المصانع في بيت المقدس والرملة وصور وإنطاكية وطرابلس وعكا. أما عن تصنيع السكر والعسل من نبات القصب، فكان يوجد مكان كبير المساحة يسمى مسبكاً أو معصرةً أو محجراً، وفيه يتم جمع محصول القصب الحلو المذاق من أسفل، ثم يقطع إلى قطع صغيرة طول الإصبع أو أقل، ثم يوضع في إناء حجري متسع حيث، تقوم صخرة كبيرة الحجم بطحن القصب بواسطة الثيران التي تقوم بإدارة الحجر لطحن القصب المقطع، ثم يفرغونها في غلاية كبيرة تسع تسعة أو عشرة براميل، ثم يشعلون النيران أسفل الغلاية، وعندما يصل القصب المطحون إلى درجة الغليان يزيلون أعلاه، حيث يضعونه في براميل وذلك يسمى عسل السكر، وما يتبقى في أسفل الغلاية يصبونه في أنابيب يتركونه يبرد ويصنع منه سكر قوالب.[٤١٤] وأحيانا يستخدم أهل الشام طواحين الماء في عصر السكر [٤١٥].

وشكلت صناعة الخمور مصدراً هاماً من مصادر الدخل للخزينة السلطانية، وقد تركزت صناعة الخمر في مصر في مدينة الإسكندرية، إذ كانت سبباً في انتعاشها اقتصاديا وكان كلٌ من المصريين والأجانب يعملون بتلك الصناعة حيث استفادت الحكومة من الضرائب المفروضة عليها، والتي قدرت بحوالي ٤٠ ألف دينار لذلك فشل الأمير آل ملك في القضاء على تلك الصناعة في الإسكندرية، بينما نجح في القاهرة، وقيل إنه إذا منع الأجانب من حمل الخمر إلى الإسكندرية فإنه سيكون سبباً

١٩٨٦ م، ص ١٩٩.

([٤١٤]) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٦٨.

Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 199 , See Also, Thompson ,Economic and Social of the Middle ages (300 – 1300), vol 1 , London , 1959,p. 359.

([415])Theoderich ,Guide to the Holy Land ,trans by,Aburey Stewart ,2 ed ,New york,1968, p. 64.

في فساد وتدهور الوضع الاقتصادي فيها[٤١٦]، ومن المناطق المشهورة أيضًا منية الأمراء وكان غالبية سكانها من النصارى، وعرف في ذلك الوقت بصناعة الخمر وبيعه، وفي عام ٧١٨ هـ / ١٣١٧ م زاد فيضان النيل وأتلف ما يزيد عن ١٨٠ ألف جرة من الخمور، وفي عام ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م كسر الأمير يلبغا السالمي ما يزيد عن ٤٠ ألف جرة خمور[٤١٧]، يضاف إلى ذلك منطقة خزانة البنود فقد جلب السلطان الناصر محمد بن قلاوون إليها الكثير من الأسرى الأرمن وكانوا يعصرون الخمور بكثرة في مساكنهم وبلغ مقدار ما يعصرونه من الخمر في كل عام حوالي ٣٢ ألف جرة ويباع في اليوم الواحد نحو ١٢ رطلًا[٤١٨].

ووجدت صناعة الخمور في بلاد الشام بكثرة، وذلك لأن النبيذ دخل في الشعائر الدينية، فاهتم المسيحيون بزراعة الكروم (العنب) حتى عندما استولى الصليبيون على بلاد الشام توسعوا في زراعة الكروم فضلا عن شدة خصوبة المنطقة الساحلية الشامية والتي ساهمت بشكل كبير في تحسين الإنتاج وجودته وكثرته، وخاصة في المناطق التي يزرع بها الكروم، ويعيش فيها أعدادًا كبيرة من المسيحيين

---

(٤١٦) المقريزي، السلوك، ج ٢ ق ٣، ص ٦٤٦ – ٦٤٧.

- الأمير آل ملك: اصله من الإبلستين فى بلاد الروم ووقع أسيراً على يد الظاهر بيبرس ووهبه للمنصور قلاوون وترقى فى الخدمة وكان من أهل المشورة أيام الناصر محمد بن قلاوون وتولى نيابة حماة ثم نيابة مصر وشدد على من يشرب الخمر وكان مهاباً ثم تولى نيابة دمشق ثم صفد وغزة وجهز إلى الإسكندرية فاعتقل بها وأعدم فى اواخر عام ٧٤٦هـ. أنظر، العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص ٢٤٠-٢٤١.

(٤١٧) المقريزي، الخطط، ج ٣، ص ٢١١.

- منية الأمراء: تسمى منية الشيرج أو السيرج أو الامراء وهى بليدة فيها أسواق على بعد فرسخ من القاهرة في طريق الإسكندرية، أنظر، المقريزي، نفسه.

(٤١٨) المقريزي، السلوك، ج ٢ ق٣، ص ٦٤٠ – ٦٤١ ؛ الخطط، ج ٢٨٠ -٢٨١.

- خزانة البنود: بناها الخليفة الفاطمي الظافر لتخزين الرايات والأسلحة، ثم احترقت عام ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م، ثم أصبحت سكنًا للأمراء وكبار رجال الدولة، انظر: المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٢٧٨ ؛ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا، ج ٢، تحقيق محمد حلمي، القاهرة، ١٩٧١ م، ص ٢٨٣ ؛ القرماني، أحمد بن يوسف القرماني، أخبار البلاد وآثار الدول في التاريخ، ج٢، تحقيق، أحمد حطيط، فهمي سعد، بيروت، ١٩٩٢ م، ص ٢٧٦.

مثل الرملة الفلسطينية وبيت لحم وبيت إبل، حيث يزرعون مساحات كثيرة من الروم، ويعصرونه.. في براميل بكميات كبيرة [٤١٩].

كان الخمر يصنع كالآتي بأن يلقى العنب في حوض واسع كبير له فتحة يخرج منها العصير إلى حوض أصغر، ويقوم العمال بهرس العنب بالأيدي، وكان العصير الذي يخرج منه يسمى السلاق، و يترك العصير في جرار يغلي فإذا غلى واشتد الغليان، يوضع عليه الزبد ويرفع من على النار فيصبح خمراً[٤٢٠].

أما صناعة الزيوت فكانت ذات أهمية، حيث كان الزيت يستخدم بكميات كبيرة في الإضاءة والطعام في العصر الوسيط، وكانت المعاصر تزيد من إنتاجها من الزيت في المواسم والأعياد. وكانت أهم الزيوت في العصر المملوكي على حسب الأفضلية، هو زيت الزيتون الذي وجد في مصر في منطقة الفيوم فقط[٤٢١]، وكان زيت الزيتون ينتج بكثرة في بيت المقدس وخصص له سوقٌ سمى سوق الزيت وقد ظلت القدس سوقاً رئيسيًا لعصر زيت الزيتون طوال العصر المملوكي [٤٢٢] كذلك صنع الزيت من بذرة القطن والذرة واستخدم في الطعام، وكذلك زيت السمسم (زيت السيرج)، و زيت بذرة الكتان[٤٢٣].

كان لزيت أو دهان البلسم (البلسان) أهمية كبيرة عند النصارى، لأنه يدخل في عملية التعميد والتنصير، حيث كان لزاما عليهم وضع جزء منه في ماء المعمودية، كما يستخدم في علاج الجروح والمرضي، ونظرا لذلك كان السلطان يحضر وقت حصاده وعصره، وتحمل العصارة إلي الخزانة السلطانية، ثم تنقل إلي قلاع الشام والمارستانات لمعالجة المرضي، ولا يؤخذ منه شيءٌ إلا بعد أخذ مرسوم

([٤١٩]) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٥٦ ؛

Ludolph , Description of the Holy Land, p. 65 , Wright , Early Travelers, p. 164 , Langnon ,Le Saint Voyage , p. 41.

([٤٢٠]) النويري، نهاية الإرب، ج ٤، ص ٨٢ – ٨٧.

([٤٢١]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٣٠٨.

([422]) Lutfi ,(H.), Al Quds al Mamlukiyya , Berlin , 1985 , p. 285.

([423]) Souriano , Treaties on the holy Land , p. 39 , 223.

بذلك، ويهدي أيضًا إلي ملوك النصارى من الأحباش واللاتين والفرنج ويسمونه زيت الميرون[٤٢٤]، وعندما انقطعت زراعته في مصر في أوائل القرن العاشر الهجري عام ٩٠٥ هـ - ١٤٩٩م بسبب إتلاف أشجاره نتيجة الحروب بين الطوائف المملوكية عقب وفاة السلطان قايتباي كما ذكر الرحالة فون هارف.Von Harff [٤٢٥]، فقام السلطان الغوري بالبحث عنه فأحضروا له نبات البلسان البري من الحجاز وتمت زراعته في المطرية وروي بماء البئر المقدسة فازدهرت الشجرة وعادت الحديقة كما كانت[٤٢٦].

كان البستاني عندما ينضج النبات يقوم بتقليم الشجرة وإحداث شقوق في اللحاء، ويتم ربط تلك الشقوق بالقماش، أو يوضع قطعة من القطن لتمتص الزيت، ثم يوضع في أواني خاصة فخارية أو زجاجية، ويفعلون ذلك ثلاث مرات [٤٢٧]، ولا يكتفي البستاني بذلك، بل يقوم بأخذ الفروع وأوراق الأشجار وتغلي في الماء ويذوب كل ما بها من بلسم مثل الدهن، ويطفو علي سطح الماء، ثم يجمع بالمعلقة، ثم يوضع في وعاء ويترك حتي يتماسك لبعض الوقت [٤٢٨] وبذلك يمكن الاستفادة من الشجرة باستغلال الأوراق والفروع واللحاء.

وقد أمكن معرفة البلسم الجيد عن طريق وضع نقطة منه في كوب ماء فتذوب بسهولة وتستقر في القاع، وإذا تم تحريك الكوب يصعد البلسم علي السطح، أو يوضع في اليد فينساب بسهولة عند فركه [٤٢٩]، ويمكن التأكد من نقائه وصفائه إذا كان لونه أصفر، فإذا كان أحمر اللون، وسميكاً كان غير نقي، وإذا أخذ منه قطرة ووضعت في

([٤٢٤]) المقريزي، الخطط، ج١، ص ٣٧٢ ؛ العمري، مسالك الأبصار، ج ٢، ص ١٢٨– ١٢٩ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٤٩.

([425]) Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 109.

([٤٢٦]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٤، ص ١٤٩.

([427]) Ludolph , Description of the Holy land ,p. 69, Dopp ,Le Egypt , p.29 - 30 , Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff. 127, Frescobaldi , A visit to The Holy Land ,p. 54 , 107.

([٤٢٨]) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٧٠ ؛ .Ludolph,op.cit,p. 69

([429]) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , P. 55.

الشمس فإذا كان جيدا ونقياً سنشعر بحرارة شديدة ولن نستطيع وضع أيدينا عليه، أو نضع قطرة منه علي سكين ونقربها من النار فإذا احترق يكون من النوع الجيد، أو نضع قطرة منه في كوب لبن ماعز ونحرك الكوب بسرعة فلو كان نقيًا سوف يتحول اللبن إلي لبن رايب في الحال [٤٣٠]، واللون الطبيعي للبلسم عند عصره هو لون النبيذ وعندما يتعرض للغلي يصبح لونه أحمر داكناً [٤٣١].

ثم صناعة طحن الحبوب، وكانت توجد بالقاهرة حوالي ٤٠.٠٠٠ طاحونة لطحن القمح وكلها تعمل بواسطة الحيوانات التي تحرك الطواحين وكذلك في بيت المقدس[٤٣٢]، التي كانت إذا فاض بئر أيوب وقت الشتاء تدور عليه طواحين مائية لحطن الحبوب[٤٣٣]، وكانت الطواحين في العصر المملوكي إما طواحين سلطانية أو طواحين عامة يمتلكها بعض الأفراد، وكانت الطريقة المستخدمة في طحن الغلال بسيطة، حيث تستخدم في تلك العملية قِطَعٌ من أعمدة الجرانيت وهي مدورة يحركها حصان أو ثور [٤٣٤]، وذكر القلقشندي أن الطواحين كانت معلقة ومدارتها أسفل وطواحينها فوق كما في السواقي، بحيث لا يقارب الدقيق ذيل الدواب[٤٣٥]، وفي المطحن يقوم الطحان بغربلة الغلة من التراب وتنقيتها من الطين وتنظيفها من الغبار قبل طحنها ثم يرش قليلاً من الماء ليجعل الدقيق أكثر بياضا[٤٣٦].

أما صناعة الأسلحة فقد اهتمت بها الدولة المملوكية كثيرا لأنها كانت دولة حربية عسكرية منذ نشأتها وقيامها، ذلك فضلا عن أن المماليك أنفسهم كانوا يمثلون

([430]) Schiltberger ,The bondage and Travel of Johan , p. 62.

([431]) Ludolph Description of the Holy land, , p. 69.

([432]) Souriano, Treaties on the holy Land ,p. 191 , See Also , Graham , (P.), Top graphical dictionary of Palestine , or the holy land , London , 1836 , p. 392.

([٤٣٣]) الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٥٧.

([٤٣٤]) جومار، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ترجمة ايمن فؤاد السيد، القاهرة، ١٩٨٨ م، ص ٥٣.

([٤٣٥]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧٦.

([٤٣٦]) ابن الأخوة، معالم القربة، ص ٨٩.

حلقة عسكرية ممتازة، فتدربوا على الفروسية وفنون القتال والحرب، ولذلك كانت الصناعات الحربية تحتل مكاناً هاماً وبارزاً في النشاط الصناعي للدولة، كما حظيت بقسط وافر من اهتمام السلاطين المماليك. وفي مصر وُجِد سوق السلاح لبيع القسي والنشاب وكل آلات السلاح، وكما وُجِد فيما بين المدرسة الظاهرية وبين قصر الأمير بشتاك وهناك أسواق أخرى متصلة بالأسلحة مثل سوق المهامزين التي يستخدم في ركوب الخيل وسوق اللجميين لصنع اللجم والسروج[٤٣٧].

كانت الأسلحة تصنع في دمشق وتميزت بدقة الصنع، وكذلك يصنعون الآلات الحادة، مثل السكاكين حيث تصنع باستخدام قطعة من الخشب مصقولة بالحديد ويقومون بتلميع النصل صعوداً وهبوطاً لجعله حاداً قوياً [٤٣٨]، وذلك الأمر يوضح أن صناعة السيوف والأسلحة قد ظلت باقية في دمشق حتى بعد انتهاء الحروب مع تيمورلنك، كما كثرت صناعتها في الإسكندرية والثغور.

وهناك صناعات أخرى صغيرة مثل عمل المخللات، حيث صنع السكان في مصر والشام أيضًا المخللات من الليمون والتفاح بكميات كبيرة [٤٣٩] في أوعية كبيرة ومعها بعض الثمار المخللة وكانوا يصنعون كل يوم ١٥٠برميلاً[٤٤٠]، وكذلك صناعة الطوب، فكان العمال يقومون بعمل لبنات من الطين المخلوط بالتبن، ويتم تجفيفه بعد ذلك في الشمس ثم يستخدم في البناء[٤٤١]، و صناعة ماء الورد والتي صنع منه كميات كبيرة وصلت إلى آلاف البراميل كل عام من جميع أنواع الزهور[٤٤٢]، وكذلك صناعة الأحذية والمصنوعات الذهبية[٤٤٣]، وصناعة الفاكهة المجففة وحفظها

---

(٤٣٧) المقريزي، الخطط، ج٣، ص ١٥٧ – ١٥٩.

(438) Wright , Early Travelers , p. 304.

(٤٣٩) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ٦٩.

(440) Dopp , Le Egypte , p.37.

(441) Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard , p. 51.

(442) Frescobaldi , A visit to The Holy Land , p. 182.

(443) Adler , Jewish Travelers , p. 238.

بطريقة جيدة [٤٤٤]،كما صنع من مخلفات البلح طعام للحيوانات، أما أوراقه فقد صنع منها السلال، واللحاء صنع منه الحبال والخيوط، والفروع صنع منها أشياء أخرى، ومن الجذع صنعت العوارض الخشبية من أجل سقف المنازل [٤٤٥].

- التجارة (التجارة الداخلية):

تعد التجارة سواء كانت داخلية أو خارجية مصدرا أساسيا من مصادر الاقتصاد الهامة في الدولة، فحركة البيع والشراء تمثل القوى المحركة للدولة، وكلما زاد حجم التبادل التجاري داخلياً وخارجياً ساعد ذلك على نمو الدولة وازدهارها، ودل ذلك على رخائها وتحسين أوضاع شعبها المادية والثقافية والاجتماعية، وكان السبب الرئيسي في رخاء الدولة المملوكية هو امتلاكها طرقاً برية عديدة غير الطرق البحرية، فإليها جاء التجار من ساحل الهند، وأتوا بشتى أنواع البضائع والسلع القيمة عالية الجودة وشكل هؤلاء أكبر حركة نقل وتجارة وكان لابد أن يعرضوا بضاعتهم أمام السلطان فحوالي نصف البضاعة التي جلبها التجار كانت تذهب إلى السلطان وأعوانه. [٤٤٦]

ومن تلك الطرق التجارية: كان الطريق الأول وهو طريق الطور- بولاق، حيث تصل السفن التجارية الهندية إلى البحر الأحمر عند ميناء عدن، ثم إلى ميناء الطور في جنوب سيناء، وتنقل فيما بعد السلع والبضائع على ظهور الجمال والبغال في الصحراء إلى ميناء بولاق بالقاهرة، وقد شاهد بعض الرحالة عند سفرهم إلى دير سانت كاترين القوافل التجارية، حيث سافروا معهم متجهين جميعاً إلى البحر الأحمر، وتلك القوافل كانت تسافر كل فترة إلى ميناء الطور لتحمل البضائع والتوابل الآتية من الهند. [٤٤٧]، ثم تنقل تلك السلع والبضائع إلى أسواق القاهرة، وتصعد في فرعي رشيد

([٤٤٤]) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٦٧.

([445]) Souriano , Treaties on the holy Land ,pp. 222 – 223.

([446]) Dopp , Le Egypte , pp. 7-8.

([٤٤٧]) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٧٨ ؛

Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff ,p. 36 , Fabri , The Wanderning , vol 2 part 2 , pp. 642 -643.

ودمياط إلى الموانئ الرئيسية والأسواق الهامة على ساحل البحر المتوسط، ومنها إلى موانئ الشام وأوربا[٤٤٨]، أو تنقل إلى تنيس عن طريق خليج يخرج من فرع دمياط، ويصب في المنزلة، وقد ازدهر ذلك الطريق على حساب عيذاب – قوص بعد زوال الخطر الصليبي[٤٤٩].

أما الطريق الثاني، فكان يبدأ عند ميناء عيذاب علي البحر الأحمر إلى ميناء قوص على النيل، و تنقل الجمال والبغال السلع والبضائع أيضاً عبر الصحراء الشرقية إلى النيل، واستغرقت الرحلة ٩ أيام، ومن عيذاب إلى بولاق و القاهرة ١٥ يوماً، وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) كان النهر يفيض فتسير المراكب في الضفة اليمني، ثم تنقل أيضاً السلع إلى الإسكندرية. [٤٥٠]، وقد قل استخدام طريق عيذاب – قوص – بولاق – في أوائل القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، بسبب طوله وكثرة تكاليفه، وإن كانت موانيه مفتوحة طوال العام لأنه أقل خطورة من الطرق الأخرى[٤٥١].

والطريق الثالث، من البحر الأحمر ويتجه براً إلى مكة ثم إلى الطور ثم إلى بولاق أو إلى دمشق، حيث تصل السلع الشرقية إلى البحر الأحمر عند ميناء عدن، ثم تنقل براً بمحاذاة الساحل إلى مكة المكرمة، حيث اجتمع الحجاج والتجار المسلمون من حلب ودمشق وسوريا والقاهرة وتركيا، فكان بعضهم يؤدي فريضة الحج، والبعض الأخر يؤدي أعمالاً تجارية بشراء التوابل والفلفل، ثم تنقل إلى ميناء الطور ومنه إلى القاهرة والإسكندرية. [٤٥٢]، وهناك طريق آخر من مكة إلى المدينة المنورة فإلى

([448]) Frescobaldi , A Visit to the Holy Land , p. 64, 109 , Ludolph , Description of the Holy land p. 84 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud op.cit ,pp. 57 , 63.

([٤٤٩]) إبراهيم حسن، البحرية في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦ م، ص ٦١.

([٤٥٠]) مارينو سانوتو، كتاب الأسرار، ص ١٠١- ١٠٢ ؛ المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٣٢٧.

([٤٥١]) إبراهيم حسن، البحرية، ص ٦١.

([452]) Fabri , The Wanderning , vol 2 part 2 , p. 642 -643 , Dopp , Le Egypte , pp. 44 – 47 .

دمشق وحلب وحمص ويتفرع إلى الموانئ والثغور الشامية مثل طرابلس وبيروت وعكا ثم إلى أوربا[٤٥٣].

قامت السلطات المملوكية بحماية الطرق الداخلية وصيانتها، وخاصة طريق البحر الأحمر، وتأمين وصول البضائع والسلع الشرقية من البحر الأحمر إلى القاهرة، ثم نقلها إلى موانئ البحر الأحمر خاصة بعد تدهور الطرق التجارية البرية في وسط آسيا بسبب الغزو المغولي لآسيا، فأصبح طريق البحر الأحمر الأكثر أهمية وأماناً[٤٥٤]، ولذلك عمل السلاطين المماليك على حمايته، والضرب على أيدي العابثين والمعتدين على القوافل التجارية والمسافرين، وفرض السيطرة المملوكية على الطريق[٤٥٥]، هكذا تميز ذلك الطريق بالأمان فهو بعيد عن ميادين الحروب بآسيا، وكانت الملاحة فيه قاصرة على السفن الإسلامية، وكذلك تميز برخص تكاليف النقل به مما أدي إلى أن تكون أسعار السلع أرخص من مثيلاتها التي تنقل إلى بلاد الشام، ولذلك حرصت السلطات المملوكية على حماية الطرق التجارية الداخلية من اللصوص وقطاع الطرق ومن الهجمات التي شنها بعض حكام وملوك الدول الأفريقية.

ولا يفوتنا هنا أن نتناول وسائل النقل الداخلية، والتي لم يهملها الرحالة الأوربيون في نصوصهم و اتضح مما ذكروه أن هناك وسيلتين للنقل إحداهما برية والأخرى مائية، فالبرية كانت الدواب، مثل الحمير والبغال والجمال، ففي المدن كانت توجد مواقف خاصة بحمير الأجرة وعرف أصحابها باسم المكارية، ففي القاهرة أحصى الرحالة الراهب الأب سوريانو Souriano أعداد البغال حوالي ٤٠.٠٠٠ بغل لحمل الناس والبضائع من مكان لآخر[٤٥٦].

([453]) Dopp , Le Egypte, pp. 44 – 47,Wright ,op.cit ,p. 302.

([٤٥٤]) نعيم زكي، طرق التجارة ومحطاتها الدولية، القاهرة، ١٩٧٣ م، ص ١٢٥ ؛ سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص ٢٩٨.

([٤٥٥]) المقريزي، السلوك، ج١ ق٢، ص ٥٥٠، ٦٠٨، ٦٨١ ؛ ج١ ق٣، ص ٧٠٠ ؛ ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص ٢٨٠ ؛ ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، تاريخ الدول والملوك، ج ٧، تحقيق قسطنطين رزيق، بيروت، ١٩٣٦ م، ص ٤٥.

([456]) Souriano ,Treaties on the holy Land ,p. 191.

أما نيكولو Nicolo فقد أحصاهم حوالي٦٠.٠٠٠ حمار وبغل استخدموا في التنقل في شوارع المدينة والتجول فيها. [٤٥٧] وعندما كان المسافر يصل إلى مدخل المدينة، يجد جماعة من المكارية في انتظاره ومعهم عدد كبير من الحمير والبغال يؤجرونها للمسافرين مقابل ٢ دوكة ذهبية [٤٥٨]، وقد حاول الرحالة لابروكيير la broquiere شراء بغل من المكاري في غزة بمبلغ ٢ دوكة ذهبية ولكنه رفض بيعه فاضطر الرحالة لتأجير البغل بمبلغ ٥ دوكات ذهبية مقابل نقلة إلى دير سانت كاترين[٤٥٩].

وقد اهتم المكارية بتجهيز وإعداد البغال والحمير، حيث زينت بالسروج الجميلة المزخرفة الجيدة الصنع وبالبرادع القيمة وعليها زخارف، حيث رأي أحد الرحالة بردعة حمار غالية الثمن قدرت بحوالي ٢٠٠٠ دوكة ذهبية لأنها كانت مصنوعة من أجود أنواع الأقمشة والجلود ومرصعة بالجواهر والأحجار الكريمة والذهب من الأمام [٤٦٠]، كذلك رأي بيرو طافورPero tafour حميراً عديدة عندما نزل القاهرة وكانت معدة ومجهزة جيداً بالبرادع واللجم والسروج وهي سريعة جداً [٤٦١].

أما الوسيلة الأخرى فكانت القوارب والمراكب الشراعية، وهي وسيلة هامة في الربط بين البلاد، وخاصة في مصر حيث كان نهر النيل يمتلئ بالقوارب الصغيرة والكبيرة لنقل الناس والأمتعة والسلع، فكان وسيلة طبيعية لا مثيل لها في الربط بين شمال مصر وجنوبها وقد عبر أحد الرحالة المسلمين عن مراكب النيل آنذاك بقوله: ليس في الدنيا نهر تجري فيه السفن أكثر من نيل مصر[٤٦٢]، ويؤيده في ذلك ابن

([457]) Nicolo ,A voyage Beyond the seas , pp. 88 – 89.

([٤٥٨]) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٤٢.

([459]) Wright , Early Travelers, p. 279.

([460]) Souriano, Treaties on the holy Land ,p. 191 , Adler , Jewish Travelers, p. 159.

([٤٦١]) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٦٤.

([٤٦٢]) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة في محاسن القاهرة، تحقيق مصطفي السقا، كامل المهندس، دار الكتب المصرية، ١٩٦٩ م، ١٣٦.

بطوطة الذي أحصى عدد القوارب في نهر النيل بحوالي ٦٣ ألف مركب للسلطان والرعية تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات [٤٦٣]، أما البلوى المغربي فقد أحصاها بحوالي ١٠٠ ألف مركب ما عدا زوارق الصيد الصغيرة وزوارق الركوب [٤٦٤].

لم يكن مجرى نهر النيل وحده هو طريق المواصلات والسفر بين أنحاء البلاد بل كانت القنوات والترع الخارجية من النيل تقوم بنفس الدور، حيث ركب الرحالة فريسكو بالدي وأصدقاؤه من الإسكندرية إلى القاهرة في مركب بثلاثة صواري عبر قناة فوه [٤٦٥]، كما أجر الرحالة اليهودي مشيولم meshullom مركب للسفر من الإسكندرية إلى القاهرة، وكانت تخص أحد الأمراء المماليك ودفع أجرة المركب حوالي ٣٠ ماجوري majori، ثم طلب منه عشر دوكات أخرى، ولكن المسافرين ساوموه على المبلغ حتى وصل إلى ١٠ ماجوري فقط [٤٦٦].

يمكن وصف تلك المراكب النهرية من خلال ما ذكره الرحالة بيرو طافورPero tafour أنها مراكب طويلة طول الأغربة الكبيرة ومجهزة بالحجرات التي تمتد من أحد طرفيها إلى الطرف الآخر حيث يستطيع المرء الإقامة، ولها صنادل منبسطة لتستطيع السير في المياه الضحلة، وتحمل الكثير من الحمولة ومجهزة بقلع طويل يبلغ طول الشواني، ولكنه قلع ضيق مثلث الشكل يشبه قلع الغراب، ورغم أنها تسير بالأشرعة والمجاديف، إلا أنها في بعض الأحيان وقت فيضان النهر لا تستطيع التقدم ياردة واحدة للأمام إلا إذا تجنبت التيار أو إذا وقف الرجال على الشاطئ ليجذبوها بالحبال الطويلة، وعليها ثلاث طبول واحدة في مؤخرتها والثانية في مقدمتها والثالثة في وسطها، لإخافة التماسيح وإبعادها عن طريق المركب[٤٦٧] وهكذا كانت

([٤٦٣]) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٤٠ -٤١.

([٤٦٤]) البلوى، تاج المفرق، ص ٢١٨.

([465]) Frescobaldi , A visit to the Holy Places, p. 42.

([466]) 165 , Adler ,Jewish Travelles.

- الماجورى: لم تتوصل الباحثة إلى تعريف هذه العملة.

([٤٦٧]) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٦٣ ؛ وبذلك تشبه الذهبية التي كانت مخصصة لنقل

ضفة النيل والترع والقنوات تغطى بعشرات القوارب والمراكب التي كان الناس يركبونها إما للنزهة أو مشاهدة الاحتفالات في أيام الأعياد والمناسبات أو للسفر والتنقل من مكان لآخر.

- الأســـواق:

كانت الأسواق عبارة عن مجموعة من الشوارع الطويلة المتوازية تقفل مداخلها بأبواب تفصلها عن بعضها، كما كانت مسقوفة بالقباب أو الأسقف الأخرى من الخشب أو الحصير أو الأقمشة، لتحمي المارة وأهل السوق من حرارة الشمس والأمطار وتتخللها نوافذ أو فتحات صغيرة لينفذ منها الضوء للسوق[٤٦٨]، وعلى جانبي السوق وجدت دكاكين مليئة بالضائع والسلع التي يقبل عليها الناس، كما كانت تستخدم تلك الدكاكين في عمليات المبادلات التجارية وأعمال البيع والشراء كما أنها استخدمت كمحلات للعمل والصناعة أو ما يسمى بالورش حيث وجد بها أماكن للغزالين والدباغين والصاغة ووجد بداخل الأسواق محلات لصانعي الأحذية أو الخياطين الذين يخيطون الملابس ويبيعونها جاهزة للناس [٤٦٩].

ويمكن تصنيف الأسواق إلى عدة أصناف: أهمها أسواق المواد الغذائية والأطعمة، حيث اعتاد الناس شراء الأطعمة الجاهزة من السوق ونادراً ما صنعوا الطعام في المنزل، كما أن الحجاج والمسافرين لم يكن لديهم الإمكانيات أو الوقت اللازم لصنع الطعام، ولذلك كان يفضل شراء المطاعم من الأسواق المتخصصة،

المسافرين في النيل وليس بها طوابق بل في مؤخرتها عدة غرف تتسع لعشرة أفراد أما قلعها مثلث ويمتد بطول الصاري، انظر، إبراهيم حسن، البحرية، ص ١١٠.

- الأغربة: نوع من السفن الحربية يركب فيها المقاتلون والجدافون، انظر، سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص ٤٥٨ ؛ وسميت بذلك الاسم بسبب شكل مقدمة هيكلها التي علي شكل غراب وتسير بالقلع أو بالمجاديف التي يبلغ عددها مائة وثمانين أو أقل، انظر، عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، ج١، ط٢، الأنجلو المصرية، ١٩٧٩ م، ص ١٩٢.

([468]) Casola , Pilgrimage to Jerusalem ,p. 251,See Also, Prescott , Jerusalem Journey Pilgrimage to the holy land in 15 century ,London ,1954,p.164, Wolff , How Many Miles ,p. 82.

([469]) Prescott , Jerusalem Journey Pilgrimage , p. 175.

حيث وجد في القاهرة أسواق عديدة للطعام وبها مطابخ كثيرة يعمل فيها ما يقرب من ١٢.٠٠٠ طاهي وغالبيتهم يطوفون في المدينة يحملون على رؤوسهم المواقد المشتعلة وأواني بها مياه تغلي ولحوم تشوى على السيخ [٤٧٠]، أما فون هارف فقد ذكر أنه كان بالقاهرة حوالي ٢٤.٠٠٠ مطبخ و٤٨.٠٠٠ مخبز والعديد من الأفران لصنع الخبز الساخن وعدد من المطاعم الأخرى [٤٧١]، أما الخبز في بيت المقدس فكان يصنع في المنازل وكذلك الفطير يصنع بدون خميرة ولذا كان يعد أفضل أنواع الخبز ولا يوجد سواه في المدينة [٤٧٢]، كذلك وجد في القدس سوق الطباخين، والذي تم تعميره عام ٨٧٨ هـ - ١٤٧٣ م ببناء القناطر المعقودة على الحوانيت وكان قبل ذلك تسقف الجوانب بالقواصر وتسبب الضرر في الشتاء لسقوط الماء من ظهر سعف النجيل [٤٧٣]، وكان في دمشق أسواق للأطعمة الجيدة المطبوخة بشكل فاخر وقد كانوا يعتنون كثيراً بتلك الأطعمة [٤٧٤]،كما وجدت الأسواق المتعددة الأنشطة مثلما وجد في رامه حيث هناك شارعان يسميان سوق الطعام على أحد جوانبهما تباع كل أنواع الأطعمة المطبوخة والنيئة والجانب الأخر تباع فيه البضائع والسلع الأخرى[٤٧٥].

كان سوق الزيت من أهم أسواق المواد الغذائية أيضًا حيث كان يباع فيه زيت الزيتون وبه المصابن أيضاً التي يصنع منها الصابون، وكان سوقاً كبيرةً جداً وهامةً بسبب وجود أصحاب المصابن الذين يشترون الزيت بكميات كبيرة، أما مصدر الزيت فكان من الجبال والسهول القريبة من بيت المقدس ومن جبل نابلس [٤٧٦]، كذلك كان هناك سوق لبيع مواد غذائية أخرى، مثل البطيخ والخيار والقرع العسلي والبقول

([470]) Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard ,p. 60 , Langnon,Le Saint Voyage , p. 60, Frescobaldi , A visit to the holy places , p. 49.

([471]) Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 109.

([472]) Casola , Pilgrimage to Jerusalem , p. 251.

([٤٧٣]) الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٣٠٤.

([474]) Ludolph , Description of the Holy land , p. 130.

([475]) Casola ,op.cit , p. 240.

([٤٧٦]) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٥٣- ٥٤، Ibid, p. 251.

[٤٧٧]، وفى مصر وجد في بولاق سوق للغلال تخصص في بيع الغلال والمحاصيل الزراعية، وتوافد عليه الكثير من السكان المحليين والأجانب [٤٧٨] لشراء الغلال ونقلها إلى أسواق المدن الأخرى حيث كانت بولاق مركزاً لتجميع البضائع والسلع والميناء الرئيسي لمدينة القاهرة. أما سوق الطيور فكان أكبر حجماً مما في بلاد أوربا ويبيع فيه التجار كل أنواع الطيور بأحجامها وأشكالها المختلفة، ويقوم الفرارجي أيضاً بذبحها وتنظيفها للمشتري [٤٧٩].

لاحظ الرحالة جستيل Ghistele قرب مدينة القاهرة شارعين مبلطين وغاية في الجمال والروعة، أطلق عليهما سوق، وكان يمر فيهما عدد كبير من الناس حتى إنه يتعذر فيه السير في بعض أوقات النهار، كما وجد أن الأبنية في ذلك الشارع تشبه المقاهي الصغيرة أو محلات الغذاء، ويباع فيها الخبز واللحوم والأسماك وكل أنواع الفاكهة اللذيذة والعصائر [٤٨٠]، أما سوق السمك فوجد في المدن الساحلية مثل مدينة تنيس حيث توافرت فيه كميات كبيرة من الأسماك وأنواع عديدة وبأسعار رخيصة[٤٨١].

بالإضافة إلى أسواق تخصصت في بيع السلع الشرقية الواردة من الهند وشرق آسيا لاسيما العطور والتوابل، والحرائر والأقمشة التيلية والأحجار الكريمة وخشب الصندل والقرنفل والبورسلين والحيوانات النادرة، وهي سلع غالية الثمن والقيمة ينم توزيعها في مختلف أنحاء العالم، ولذلك كان يوجد سوق واحد رئيسي في كل عاصمة كبيرة مثل القاهرة ودمشق[٤٨٢].

كذلك وجد سوق للأقمشة الكتانية والقطنية والحريرية والملابس الجاهزة، مثل

([477]) Souriano , Description of the Holy land ,p. 191.

([٤٧٨]) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٦٤.

([479]) Frescobaldi , A visit to the holy places , p. 162.

([480]) Ghistele , Voyage en Egypte ,p. 19 .

([481]) Nicolo , A voyage Beyond the seas, p. 84.

([٤٨٢]) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٩٧ ؛ Adler , Jewish Travelers , p. 129 , Frescobaldi , A visit to the holy place , p. 46 , See Also , Wolff , How Many miles?, p. 82.

الخلع والطواقي والأغطية والمفروشات والأمشاط والأواني الجلدية والسيوف الجيدة والسكاكين الحادة، وذلك السوق كان يسمى السوق الكبير[٤٨٣]، وسوق آخر رئيسي وجد به الصيارفة والصائغين وبائعي المجوهرات والحلي [٤٨٤].

تميزت مدينة القدس عن غيرها بسوق واحدة أيضاً ذات أنشطة متعددة حيث أشار أحد الرحالة إلى وجود أسواق ثلاثة متجاورة بالقرب من باب المحراب المعروف بباب الخليل [٤٨٥] فالأول منها هو الغربي سمي سوق العطارين، وكان وقف السلطان صلاح الدين الأيوبي على مدرسته الصلاحية، والذي يليه هو الأوسط لبيع الخضروات و الذي يليه لجهة الشرق لبيع القماش وكان وقفاً على مصالح المسجد الأقصى ، وذكر المسافرون أنهم لم يرو مثل تلك الأسواق الثلاثة في الترتيب والبناء في بلدة من البلدان [٤٨٦].

وجدت أسواق للعبيد في الشام ومصر ولكن كانت أسواق القاهرة لا تقارن، حيث وجد بها سوق للعبيد، وآخر بالإسكندرية في فندق التتار، وكان يجلب هؤلاء العبيد من أوربا أو من أفريقيا وهم صغار السن، ويتم شراؤهم من بلادهم أو أخذهم أسرى أو سرقتهم، وعندما يأتون إلى القاهرة كان يتم إعلام السلطان بذلك أولاً ليختار ما يشاء منهم ثم يعرض الباقي في السوق، و لا يمكن أن يباع عبد اعتنق الإسلام - حيث تحرم الديانة الإسلامية بيع المسلم ولا تسمح ليهودي أو مسيحي أن يشتري عبد مسلم – أما أولئك المنتمون إلى ديانات أخرى فيتم بيعهم أزواجاً أي الزوج مع زوجته والأب مع الأم وأطفالهم [٤٨٧]، ويعرض هؤلاء العبيد في السوق بصورة غير آدمية حيث يقفون شبه عراة ويتم فحصهم جسدياً للتأكد من قدرتهم على الكلام والسمع والإبصار من قبل المشترى، ويجعلونهم يركضون أو يمشون ويؤدون حركات

([483]) Wright ,Early Travelers , p. 311.

([484]) Frescobaldi ,op.cit, p. 104.

([485]) Adler , Jewish Travelers , p. 236.

([٤٨٦]) الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٥٠.

([487]) Ghistele , Voyage en Egypte , pp. 19 – 20.

وتمرينات معينة كوسيلة للفحص والتأكد من قوة الجسد وتحديد السعر المناسب للعبد أو الجارية [٤٨٨].

وهناك أيضًا أسواق كثيرة ومتنوعة وبعضها متعدد الأنشطة وبعضها متخصص في سلعة معينة حيث وجد سوق للذهب، سوق للفضة، سوق للعطور، سوق للحوم، سوق للأحجار الكريمة، سوق للحرير، سوق للأقمشة، سوق للأخشاب، سوق للأعشاب الطبية، سوق للسجاد وللمفروشات، سوق للزجاج، سوق للأسلحة، سوق للخضروات، سوق للملابس، سوق للطباخين، سوق للطيور، سوق للزيت، وغيرهم[٤٨٩].

كما كانت هناك أسواق موسمية كانت تعقد لفترة معينة فى مناسبات معينة، فقد شاهد الرحالة الأجانب عند نزولهم إلى الميناء يأتي إليهم أفراد يحملون معهم الأعشاب وأغصان الأشجار، والفرش والبسط وقد أتوا من مناطق مجاورة ودخلوا نزل المسافرين لبيع تلك السلع، ومعهم سلع أخرى مثل العطور وماء الورد الدمشقي والبلسم والمسك والصابون والأحجار الكريمة[٤٩٠].

كما أتى الفلاحون من القرى المجاورة إلي فنادق ومساكن الحجاج الأجانب، ليقيموا سوقاً داخل الفندق لبيع منتجاتهم الريفية من الألبان والبيض والخبز والفاكهة والأرز وكذلك الخمور، إما عن طريق المقايضة، أو بالنقد[٤٩١]، ولم يراع التجار أيضاً حرمة الأماكن المقدسة، فقد أقاموا السوق أيضاً في ساحة كنيسة القيامة كما روى لودولفLudolph الذي زار القدس عام ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م أنه في موسم

([488]) Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard ,p.75 , Ghistele , Ibid , p. 20 – 21 See Also , Wolff, How Many miles? , p. 86, Prescott , Once to Sinai , pp. 167 – 168.

([٤٨٩]) البدري الدمشقي، نزهة الأنام، ص ٦٢ – ٦٣ ؛ الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٨٠ – ٥٨١، Larrivaz ,op.cit, p. 48.

([490]) Fabri , The Wanderning , vol 1, part 1 , pp.226 – 228.

([491]) Fabri ,op.cit ,vol 1, part 1,p. 254 ,Casola , Pilgrimage to Jerusalem ,p.225.

الحج كان يقام سوق موسمي في ساحة الكنيسة وتمتلئ بالحوانيت ويباع فيها كل أنواع الأطعمة وتجرى فيها أيضاً عمليات البيع والشراء وعرض السلع والبضائع الأخرى[٤٩٢] وذكر لنا بيرو طافور pero tafour أيضاً الذي زار القدس عام ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م أن المسيحيين المحليين وبخاصة الروم كانوا يدخلون الكنيسة ويبيعون الأطعمة للحجاج المسيحيين، وكذلك فإن كثيراً من المسلمين والمسيحيين كان يسمح لهم بدخول الساحة بعد الانتهاء من القداس لعرض بضائعهم على هؤلاء الحجاج حيث يشترون منهم الهدايا والتحف الشرقية النادرة [٤٩٣]، كما أوضح الراهب فيلكس فابري filx fabri أنه عند دخول الحجاج كنيسة القيامة، كان التجار المسيحيون الشرقيون يتجمعون حولهم وتغلق الأبواب ويبدأ بعض الحجاج في مساومة التجار لشراء بعض السلع بأسعار رخيصة وبيعها في بلادهم بأسعار مرتفعة للحصول على ربح مادي أكبر، كما اشترك الرهبان ورجال الدين في البيع والشراء أيضاً بحثاً عن الربح، وكذلك النبلاء الذين كانوا يمتنعون عن المساومة في بلادهم لأن ذلك دون مستواهم الاجتماعي، فإنهم لم يتحرجوا من المساومة هنا مع التجار الشرقيين في سلع عديدة مثل، المسابح والأحجار الكريمة والأقمشة، وقد قضى الجميع شطراً من الليل إن لم يكن الليل كله في البيع والشراء والمساومة[٤٩٤].

وبذلك كانت تلك الأسواق الموسمية تظل منعقدة طوال فترة النهار حتى ساعة متأخرة من الليل لإتاحة الفرصة للجميع للبيع والشراء بحرية ورغبة في حرص التجار على الاستفادة من الأرباح المادية قدر الإمكان، كما تشابهت أسواق الأقاليم والعواصم إلا أن الأسواق التي وجدت في العواصم كانت عديدة وأكثر تنوعاً ولم يكن لها نظير في الأقاليم نظراً لزيادة عدد السكان في العاصمة ولتوافد العديد من الجنسيات إليها ولوجود مقر الحكم والسلطة فيها فمن الطبيعي والمنطقي أن تتميز أسواق العاصمة قليلاً عن أسواق الأقاليم.

([492]) Ludolph , Description of the Holy land , p. 106.

([٤٩٣]) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٤٥.

([494]) Fabri ,op.cit , vol 2 part 2 p. 84.

أما بالنسبة للسلع والمنتجات التي تباع في الأسواق المصرية والشامية وأسعارها، فهي متعددة ومتنوعة في الشكل والحجم والقيمة المادية والفنية، وقد تميزت المدن المملوكية بتوفير تلك السلع بسهولة ويسر في أوقات كثيرة وشملت تلك السلع منتجات زراعية وصناعية وحيوانية سواء كانت سلعاً مستوردة أو محلية. حيث توافرت الفاكهة واللحوم وخاصة لحم الشياه في القاهرة وكانت أسعارها مناسبة للمشتري وقد كان البصل والليمون والخيار والخبز رخيصاً خاصة في وقت ازدهار الزراعة، أما الخشب فكان قليلاً وغالي الثمن وتتكلف حمولة الخشب من ٢ – ٣ دوكة ذهبية [٤٩٥].

كما كان يباع طائر السمان بوفرة، ولكن بالعدد حيث كان يباع كل عشرة بدينار مؤيدي واحد فقط وهو بذلك رخيص الثمن جداً [٤٩٦]، كما وجدت في الأسواق المصرية سلع عديدة مثل القرود الآسيوية والببغاوات والقطط البرية والحمير الوحشية والحيوانات النادرة[٤٩٧]، أما الأقمشة فكان أفضلها ما يباع في القاهرة، وأهمها القماش القطن الأبيض الناصع البياض اللامع، وذلك نظراً لجودة القطن المصري الذي يشبه الحرير في نعومته، وبلغ ثمن ذراع القماش القطني حوالي ٢ دوكة ذهبية [٤٩٨]، وكانت تصل أيضاً إلى القاهرة محاصيل عديدة من الصعيد عن طريق النيل وتستغرق الرحلة ثمانية أيام ثم توزع على باقي المدن المصرية[٤٩٩]، كما وجدت السلع الشرقية الهامة، مثل الفلفل والتوابل والأحجار الكريمة، وكان يشتريها التجار الأجانب من فرنسا وإيطاليا وألمانيا وتركيا عابرين بها البحر المتوسط إلى أوربا [٥٠٠]، وكان يباع في الإسكندرية الليمون المخلل بكميات كبيرة ويباع بأسعار رخيصة جداً حيث بلغ سعر البرميل من ٣ – ٤ عملات ذهبية [٥٠١].

([495]) Adler , Jewish Travelers ,p. 228.

([٤٩٦]) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٦٢.

([497]) Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard p.50, Frescobaldi , A visit to the holy places , p. 47.

([498]) Frescobaldi , Ibid , p. 168.

([499]) Souriano , Treaties on the holy Land , p. 193.

([500]) Adler,op.cit , p. 224.

([501]) Dopp , Le Egypte , p. 37.

كما كانت تصل سلع ومحاصيل وبضائع أخرى عن طريق العربان في المناطق المجاورة، مثل أنواع من الطيور المختلفة واللحوم والأبقار والخرفان وغيرها من الأغذية، وفي المقابل اشتري العربان المنتجات القروية والملاءات الصوفية اللازمة للكساء وبعض المنتجات الغذائية، مثل الزيت واللوز والعنب والصابون أيضاً [٥٠٢]، وفي بعض الأحيان كانت بعض السلع نادرة الوجود وسعرها مرتفعاً، مثل الخشب والزيت لأن التجار كانوا يدفعون عنها ضريبة كبيرة قدرت بحوالي ٢٤ % من ثمنها الأصلي [٥٠٣]، أما أسعار اللحوم بصفة عامة فكانت رخيصة فقد بلغ سعر اللحم البقري حوالي ٢٠ بنساً والضأن ٦ بنساً وكانت الكباش كبيرة الحجم وكل كبش يبلغ وزنه حوالي ٢٥ رطلاً، وفي رشيد وجدت كميات كبيرة من القمح مرتين في السنة وتميز بجودته العالية، وبها أيضاً السكر، وأجود أنواع الفاكهة والبلح، وكذلك الدجاج والطيور التي تمد بها القاهرة والإسكندرية [٥٠٤]، وفي بيت المقدس وجدت اللحوم بوفرة، وزيت الزيتون والسمسم بأسعار رخيصة[٥٠٥].

أما الأسماك فقد وجدت أيضاً بوفرة سواء كانت أسماك طازجة أو مملحة أو محفوظة، حيث تمتعت مصر والشام بموقعها المتميز على البحر المتوسط والبحر الأحمر ونهر النيل أيضًا، حيث يصطاده الصيادون من البحيرات على البحر المتوسط أهمها بحيرة البرلس والمنزلة، ويتم حفظه في كميات كبيرة من الملح، ويصدر إلى سوريا وقبرص ورودس وينقل إلى أسواق القاهرة[٥٠٦]، وفي بلاد الشام كانت توجد البحيرات التي يصطاد منها الأسماك مثل بحيرة طبرية، وكذلك من الأنهار العديدة

([502]) Dopp , Le Egypte, p. 20-21.

([503]) Adler, Jewish Travelers , p. 160.

([504]) Frescobaldi, A visit to the holy places, pp. 97,162.

([505]) Adler,op.cit, p. 238.

([٥٠٦]) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٣٣.

Dopp , Le Egypte , p. 27, Ludolph , Description of the Holy land,p.81 ,Ghistele, Voyage en Egypte , p. 142.

مثل نهر الأردن وكذلك في الجداول المائية مثل الجدول المحاط بجدار قرب بحيرة طبرية وسمى وريد النيل بسبب وجود أسماك الكراكين (نوع من سمك الكافيار)[٥٠٧].

زادت أيضًا كميات وحجم السلع والبضائع في مدينة دمشق، حيث لم يوجد محل أو سوق إلا وبه العديد من السلع المختلفة الأسعار، وفيها أفضل الأشياء وأغلاها قيمة وثمنًا، وهناك أفضل أنواع الأقمشة الدمشقية الحريرية المتميزة بألوانها المتعددة، وأجود الأقمشة القطنية في العالم، وهناك أيضاً منتجات معدنية مثل الأباريق والطشت المصنوع من الذهب والفضة والمطعم بنقوش وزخارف رائعة، كما تباع فيها كل أنواع السلال الهندية والأقمشة المطرزة[٥٠٨].

كما كان يباع في بلاد الشام الثلج، حيث كانت الثلوج تسقط بكميات كبيرة ويجمعونها في خزانات في فترة الصيف يتم بيعها في الأسواق ونقلها إلى المدن المصرية، كما يستخدم في حفظ الفواكه وصنع المشروبات[٥٠٩]، حيث جرت عادة السلاطين المماليك طلب الثلج من بلاد الشام إلى قلعة الجبل وخصص لذلك عدد من المراكب اختلف عددها من وقت لأخر ففي عهد الظاهر بيبرس بلغت ثلاث مراكب سنوياً ثم بلغ عددها ما بين سبعة إلى أحد عشر مركباً [٥١٠] وكان الثلج ينقل براً على الهجن وبحراً في السفن من الثغور الشامية خاصة بيروت وصيدا إلى ثغر دمياط وكان يتم ذلك فيما بين شهري حزيران (يونيو) وتشرين الثاني (نوفمبر) ثم ينقل من مراكب البحر المتوسط إلى مراكب أخرى عبر النيل إلى ساحل بولاق حيث تتولى الخيول والبغال الخاصة بالسلطان نقله إلى قلعة الجبل بالقاهرة ويحفظ في الشربخاناه

([٥٠٧]) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ٧١ ؛ Ludolph ,op.cit , p. 127, Souriano , Treaties on the holy Land, p.181,Frescobaldi, , p. 88,140.

([508]) Baumgarten,The Travel of Martin Baumgarten. 476,Frescobaldi ,op.cit, pp.182 -183.

([509]) Souriano, Treaties on the holy Land, p.161, Frescobaldi , A visit to the holy places,p. 87, Nicolo , A voyage Beyond the seas, p. 78.

([٥١٠]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص ٣٩٦، العمرى، التعريف، ص ٢٥٧، فييت، المواصلات في مصر، ص ٥٣.

(مخزن الشراب) ويخزن في صهاريج معده له حتى لا يتعرض للهواء فيعمل على ذوبانه بسرعة، وكان ينقل في البر واحد وسبعين نقلة وكلن يبحر مع الثلج أحد الثلاجين من ذوى الخبرة[٥١١]، أما الخمور فقد وجدت بوفرة في بيروت وباقي مدن بلاد الشام نظراً لكثرة مزارع الكروم فيها وبلغ ثمن البرميل حوالي ٢٠ صولدي soldi[٥١٢].

وفي يافا كان يباع زيت الزيتون والخيوط والصابون المعطر والأباريق الزجاجية والأقمشة المصبوغة والفاكهة المجففة [٥١٣]، وأحياناً كانت بعض المدن تضطر للاستيراد من المدن الأخرى أو التبادل معها فعلي سبيل المثال، كانت مدينة غزة ترسل دائماً الفواكه إلى رام الله لأنها قليلة الزراعة، ولذلك يجلب إليها من غزة الفواكه والمحاصيل مثل العنب والبلح وغيرها[٥١٤].

هكذا كانت التجارة الداخلية في مصر والشام تشير إلى تدفق مستمر في السلع والمنتجات، وتابعت مصر استيراد المنتجات الزراعية السورية أحياناً والحيوانية وماء الورد والتمر والأرز والمشروبات والثلوج والأقمشة البعلبكية والأقمشة الدمشقية المطرزة والأقمشة الحريرية من حماه وسوريا وبعلبك، وكان التصدير المصري الوحيد هو الحبوب في وقت الأزمات والشدة، أما دمشق فقد استمرت في الحصول على ما تحتاجه من سلع ومواد غذائية وملح وأقمشة من أنحاء الشام مثل حلب، وبذلك استمرت التجارة الداخلية المحلية مزدهرة ومستمرة وحركة البيع والشراء سارية فسمحت للكثيرين بالتجارة والربح والعمل المتنوع.

- تربية الطيور والحيوانـات:

لاحظ الرحالة الأوربيين وجود أعداد كبيرة من الحمام في الشوارع والمنازل، و ينقسم الحمام إلى قسمين، أحدهما بري والآخر أهلي، وذلك النوع الأخير يتخذ لعدة

---

(٥١١) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١١٧-١١٨؛ العمرى، التعريف، ص ٢٥٦؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص ٣٩٦، فييت، المواصلات في مصر، ص٥٣.

(512) Frescobaldi ,op.cit, p. 185.

(513) Adler ,Jewish Travelers , p. 139.

(514) Casola , Pilgrimage to Jerusalem, p. 240.

ضروب فمنها ما يربى في البيوت ومنها ما يستخدم في السباق والتسلية أو في حمل الرسائل وهو متعدد الأشكال والألوان والأصناف والأفعال[٥١٥] وأول ما شاهده الرحالة الإيطالي سيجولي Sigoli هو وجود أعداد ضخمة من الحمام في كل شباك من شبابيك منازل القاهرة فليس هناك شباك إلا وتجد به عشاً لتلك الطيور، وجرت العادة عند المسلمين ألا يصيدونها لأنهم لا يأكلون لحومها وكذلك يعتقدون أن من يؤذي تلك الطيور يرتكب إثماً عظيماً لأنها لا تضر أحد ولذا فهي كثيرة العدد[٥١٦] وفسر المقريزي السبب في ذلك، هو قيام بعض سكان القاهرة بتربية الحمام كهواية فقط، وبنوا له بناء يشبه القبة فوق أسطح المنازل وقاموا بإطلاق أسراب الحمام منها والتمتع بمنظرها وهي تحوم في السماء في مجموعات كبيرة فوق المنازل، وبخاصة قبيل الغروب في أحياء القاهرة القديمة مثل الجمالية والسيدة زينب والقلعة وغيرها بل ذكر أن بعض السلاطين صار يجتمع مع مطيري الحمام ويقف معهم يراهن على الطير الفلاني والطيرة الفلانية[٥١٧].

أما الحمام الذي يحمل الرسائل فيسمى الحمام الزاجل، والذي بدأ استخدامه في الموصل، وأول من أعتني به من الملوك ونقله إلى الموصل هو السلطان نور الدين زنكي في سنة ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م، وحافظ عليه الفاطميون بمصر وبالغوا في الاعتناء به حتى أفردوا له ديواناً وأعدوا له سجلات خاصة تتناول أنساب الحمام وأصله[٥١٨]، وأغلب الظن أن مصر قد استخدمت ذلك النوع من الحمام في البريد في أوائل القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي بشكل منقطع النظير من حيث الدقة والسرعة ثم زاد نشاطه بشكل ملحوظ في العصر المملوكي البحري، نتيجة

([٥١٥]) الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد، المستطرف في كل فن مستظرف، ج ٢، القاهرة، ١٩٥٢، ص ٢٣ ؛ نبيل عبد العزيز، الحمام الزاجل وأهميته في عصر المماليك، المجلة التاريخية، م ٢٢، ١٩٧٥ م، ص ٤٢.

([516]) Frescobaldi, A visit to the holy places, p.170.

([٥١٧]) المقريزي، السلوك، ج٢ ق٢، ٦٩٥ ؛ ج٢ ق٣، ص ٧٣٩.

([٥١٨]) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة، ١٣١٢هـ، ص ١٩٦ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ٩٣.

اتساع حدود المملكة وازدياد الأخطار الخارجية والداخلية التي كانت تهدد البلاد حيث كثرت الغارات المغولية والصليبية على الحدود الشامية، نظراً لأن الحمام الزاجل أسرع في نقل الرسائل فيسمح لقائد الجيش باتخاذ الاحتياطات اللازمة لكل أمر، لذا فقد اقتصر دوره في البداية بصفة خاصة على نقل الأخبار وقت الحروب والمعارك[٥١٩].

كما استخدم الحمام الزاجل في إرسال المعلومات إلى الولاة في المدن الساحلية، حين وصول السفن الأجنبية والتي حملت على متنها أجناساً متعددة، ولذا وضعت الدولة المملوكية إجراءات دقيقة لاستقبال تلك السفن أهمها استخدام الحمام الزاجل لإرسال رسالة بها معلومات تخص السفينة وركابها وعددهم وجنسيتهم ونوع الحمولة وحجمها، حيث يرسلها أحد الموظفين في الجمرك إلى والي الثغر الذي يرسلها بدوره إلى السلطان في القاهرة[٥٢٠]، لذلك اندهش أحد الرحالة من رؤية الحمام عند كبار الحكام والتجار وبعض المواطنين الآخرين في مدينة الإسكندرية، حيث كانوا يستخدمونه لتوصيل الرسائل والأخبار وبتلك الطريقة عندما يري التجار الإشارات التي يبعث بها المراقبون إلى الثغور للتنويه عن السفن القادمة يذهبون إلى والى المدينة للحصول على الإذن بالذهاب لملاقاة السفن في عرض البحر، ثم يسجلون ما وجدوه على ظهر السفينة ويرسلونه بالحمام الزاجل في رسالة توضح في عنق الحمامة أو تحت جناحيها، ثم يأخذها الوالي ويرسلها على الفور إلى القاهرة أو دمياط ليخبر الجمرك والتجار بحمولة السفن ونوعيتها للاستعداد إذا كانوا في حاجة إلى بضائع تلك السفن القادمة[٥٢١].

كما أمكن استخدامها للحماية من الهجوم الخارجي فقد رأي الرحالة بيرو طافورpero tafour في دمياط حمام يحمل الرسائل في ذيله من المكان الذي تربي

---

(٥١٩) أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطي، ج١، دار الفكر العربي، ١٩٩٠ م، ص ٨٨.

(٥٢٠) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٣٩١ ؛ أنظر، جاستون فيت، المواصلات في مصر في العصور الوسطي، ترجمة محمد وهبة، مجلة المقتطف، ١٩٣٧ م، ص ٤٠.

Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 92.

(521) Ghistele , Voyage en Egypte , pp. 122- 123.

فيه إلي أماكن أخري فإذا علقت بها الرسائل أطلقت لتعود إلى موطنها وسرعان ما يقف الأهالي على أخبار جميع من يقدمون أو يسافرون بحراً أو براً، فيكونون بمنجاة من الأخذ على غرة ولاسيما وهم يعيشون بلا وسائل دفاع عنهم وليس لديهم أسوار أو قلاع. [٥٢٢]، وخاصة في وقت شن الغارات الأوربية على السواحل المصرية فقد كانت بعض السفن الأجنبية تحمل أعلام الدول المتحالفة في حين أنها سفن للقرصنة وتقوم بالهجوم والسطو على الموانئ المصرية والشامية.

ذكر الرحالة الألماني يوحنا شيلتبرجر Johan schiltberger أن السلاطين المماليك استخدموا الحمام الزاجل في المراسلات، ولذلك كانت بعض أقفاص ذلك النوع من الحمام تلازم السلاطين في رحلاتهم العديدة، وذكر أيضاً كيفية تدريب ذلك النوع من الحمام، وأول خطوة كان يتم اتخاذها بوضع ذكر وأنثي من نوع واحد في قفص واحد ثم إضافة السكر لإطعامهما، وبعد فترة يتم إخراج الذكر وعليه علامة تحدد مسكنه وموطنه، ثم يوضع في قفص منعزل عن الأنثى ويمنع عنه السكر، وذلك حتى تكون لديه الرغبة القوية في العودة بأقصى سرعة للمكان الذي يعيش فيه من قبل حيث تم تدريبه[٥٢٣].

كانت البطاقة توضع عادة في أرجل الحمام، بدليل أن أحد الرحالة اليهود في العصر المملوكي شاهد والي الإسكندرية يضع البطاقة أو الرسالة في فم الحمامة أو رجلها، ثم يطلقها في الفضاء لتطير إلى القاهرة، فتهبط بأحد أبراج الحمام بقلعة الجبل حيث يكون في انتظارها من يسلمها للسلطان، وذكر ذلك الرحالة قائلاً وتلك حقيقة ليس فيها أدنى شك على الإطلاق[٥٢٤].

اهتم سكان القاهرة بتربية الدواجن والفراريج وهو ما يسمي بالتفريخ الصناعي، وكانت مهارتهم في ذلك الأمر حديث الرحالة ومصدر للإعجاب والدهشة،

([٥٢٢]) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٦٠.

([523]) Schiltberger ,The bondage and Travel of Johan ,p. 53 , See Also, Prescott , once to Sinai , p. 150.

([524]) Adler , Jewish Travelers , p. 162.

حيث إنهم كما اعتمدوا على التفريغ الطبيعي بوضع الطيور بالطريقة الطبيعية على البيض لحين خروج الكتاكيت منه، فإنهم أيضاً اعتمدوا على طريقة تفريخ صناعية أخرى عرفها المصريون منذ أيام الفراعنة وهي فقص البيض بوضعه في حضانات خاصة. واعتاد الناس في الشرق الإسلامي بصفة عامة وفي مصر بصفة خاصة على تربية الدواجن وبيعها في الأسواق سواء كانوا في الريف أو المدن، و كانت طريقة تربية الدواجن تعتمد على فقس البيض في أفران خاصة على نار هادئة دافئة في بلبيس والإسكندرية والقاهرة [٥٢٥] كان الرجال والنساء يجمعون أعداد كبيرة من البيض تصل إلى المئات بل الألوف من الحقول، ويرسلونه إلى الأفران الخاصة بفقس البيض في المدن حيث لا يوجد في الريف[٥٢٦]، وتتم تلك العملية في شهور الصيف وفي شهور الشتاء[٥٢٧]، وكانوا يأتون به على الجمال ويقفون أمام بيت صغير ويتقدم صاحب الفرن لأخذ كل البيض من كل شخص على حدا، كما يقوم بتسجيل اسم كل شخص أحضر البيض وعدد ما أحضره[٥٢٨]، وتلك الأفران تسمى المعامل أو التنانير وبها وقود يعطى حرارة هادئة جداً تشبه الحرارة الطبيعية للدواجن وتخرج منها فراريج صغيرة ومعظمهم دجاج[٥٢٩].

أما في دمشق فكان الأمر مختلف، حيث إن تلك المعامل مختلفة الشكل والتركيب عما يوجد في القاهرة، فقد ذكر العمري أنه قد جاء شخص من مصر في الصيف وعمل بها معمل في حاضرة العقيبة ففقس البيض وخرجت الفراريج الصغيرة ولكنها لم تفقس في وقت الخريف فخسر ماله وعاد إلى مصر[٥٣٠].

([525]) Wright ,Early travelers , p. 152 , Baumgarten ,The Travel of Martin Baumgarten , p. 465 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud, p. 211 , Wolff , op.cit , p. 101.

([526]) Dopp , Le Caire , p. 119.

([527]) Wright, op.cit , p. 152.

([528]) R. B, Two Journey to Jerusalem, p. 18.

([٥٢٩]) العمري، مسالك الإبصار، ج ٢، ص ٨٤ ؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٢٩٥ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٦٩.

([٥٣٠]) العمري، مسالك الأبصار، ص ٩١ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ٩١.

تلك الأفران كانت عبارة عن منازل كبيرة، وضع بداخلها صفوف طويلة صممت وكأنها معالف للحيوانات، ووضع فيها التبن وقش الأرز، وتحتها وجد نوع من الأفران الصغيرة بطول حجم المعالف نفسها التي يصدر منها ناراً هادئة تساعد على فقص البيض بسهولة وبطريقة طبيعية[٥٣١]، وداخل تلك المعالف وضع البيض بكميات ضخمة بلغت كما ذكرها الرحالة إلى الآلاف أي حوالي من ٧ إلى ١٠ آلاف بيضة وأحياناً أخرى تصل من ٣٥ إلى ٤٠ ألف بيضة وغطى البيض بروث الحيوانات، ثم توقد النيران وهي في الحقيقة ليست ناراً بل جمراً ملتهباً يشبه الرماد وليس به دخان، ووضع الروث حيث يلمس البيض، وسبب استخدام الروث أنه يشتعل بسهولة ودافئ، أما الخشب فناره أقوى وأشد وبعدها تزداد النار قليلاً، وتستمر تلك العملية لمدة ثلاثة أسابيع أو أقل حتى تنكسر القشرة وتخرج الكتاكيت[٥٣٢]

عندئذ وفي تلك اللحظة يعلن واحداً من القائمين بذلك العمل قائلاً انتهى فقس البيض في ذلك الفرن وغداً سيتم تفريغه، ثم يتقدم كل شخص ليأخذ البيض الذي احضره منذ أسابيع مضت، ويقوم البعض ببيعه في الأسواق أو للتجار عند باب المعامل، وتباع الكتاكيت بالمكيال وليس بالعدد ويقصد به مكيال الحبوب. [٥٣٣] وذلك المكيال يسمىBushel بوشل (مكيال الحبوب = ٨ جالون)، وتباع الأفراخ بنصف بوشل[٥٣٤]، وأحياناً يقوم صاحب الفرن بإعطاء امرأة عجوز الأفراخ الصغيرة، حيث تتولى تربيتها وإطعامها والعناية بها وهناك بعض السيدات المسنات يعشن على تلك المهنة وليس لديهم وسائل أخرى للعيش سوى تربية الأفراخ الصغيرة[٥٣٥]، وفي

([٥٣١]) الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٩٢ - ٥٩٣ ؛ Ghistele ,Voyage en Egypte , p. 55.

([532]) R.B , Two Journey to Jerusalem , p. 19, Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff, p110 ,Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard, p. 61, Ghistele , Le Voyage en Egypte ,pp.55-56.

([533]) Dopp , Le Egypte , p. 39.

([534]) Souriano , Treaties on the holy Land, p. 192.

([535]) Ludolph ,Description of the Holy land , p. 67 ,See Also, Prescott , once to Sinai , p. 147.

القاهرة كانت تلك الأفراخ الصغيرة تباع في الأسواق، حيث كان يجلس أحد الأشخاص ويضع أمامه كمية كبيرة من الكتاكيت أمامه تصل إلى ٣ أو ٤ آلاف كتكوت، ومن يشتريها يقوم بدوره ببيعها أمام منزله، وأحياناً كان يعرض صاحب الفرن على التاجر شراء كمية من الكتاكيت ويذهب التاجر لمعاينتها وإذا تم الاتفاق بين الطرفين كان الأول يقوم بتحميل الأفراخ في الأقفاص ويوردها للطرف الثاني وهكذا يتم البيع والشراء، وكانت الشوارع تمتلئ بالناس وتزدحم ازدحاماً شديداً[٥٣٦]، وبدون تلك الطريقة لم يكن من الممكن توفير كل الكميات اللازمة لسكان القاهرة وضواحيها من الدجاج والأوز وبقية الطيور، حيث تشاهد العديد من الفلاحين والرعاة يسوقون أكثر من ٦ أو ٧ آلاف دجاجة لبيعها في السوق[٥٣٧].

يمكن إعطاء وصفاً أكثر تفصيلاً ودقة عن معالم التفريخ وطريقة فقس البيض على لسان الرحالة المسلم عبد اللطيف البغدادي الذي زار مصر عام ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م حيث يذكر أن حضانة الفراريج تعتمد على روث الحيوانات، ونادراً ما ترى بمصر فراريج صغيرة تفقس طبيعياً في حضانة الدجاج، كما أن تلك المهنة تعد صناعة ومعيشة يتاجر فيها بعض الناس ويتكسبون منها، ونجد في كل بلد من البلاد المصرية مواضع عدة تعمل ذلك ويسمى الموقع، معمل الفروج، وذلك المعمل عبارة عن ساحة كبيرة يتخذ فيها من البيوت ما بين عشرة إلى عشرين بيتاً، ويوضع في كل بيت ألفا بيضة ويسمى بيت الترقيد، وصفته أن يتخذ بيت مربع الشكل طوله ثمانية أشبار في عرض ستة في ارتفاع أربعة، وله باب سعته شبران وفوق الباب طاقة مستديرة قطرها شبر ثم تسقف بأربع خشبات وفوقها سدة قصب وفوقها الطين، ثم يرص بالطوب ويدهن البيت كله ظاهره وباطنه وأعلاه وأسفله بالطين حتى لا يخرج منه بخار، وذلك السقف يشبه صدر الدجاجة، ثم يفرش البيت بالتبن، ثم يرص فوقه البيض رصاً جيداً بحيث يتماس ولا يتراكم فوق بعضه لتتواصل الحرارة فيه، وذلك

([536]) Dopp , Le Egypte , pp. 39 – 40.

([537])Ghistele,Voyage en Egypte ,p.56 , Souriano, Treaties on the holy Land p. 192, Ludolph, Description of the Holy land, p. 67.

الفعل يسمى الترقيد ثم يوقد تحته روث الحيوانات، ويترك حتى يصير رماداً ويتم تفقد البيض ساعة بعد أخرى والتأكد من حرارة الفرن، كما يتم تقليب البيض ونقله من مكانه حيث يخرج البيض الذي في الصدر إلى جهة الباب، والبيض الذي جهة الباب ينقل إلى الصدر حتى يحمى البارد الذي كان جهة الباب ويستريح الحار الذي في الصدر فيعتدل حرارة البيض، وذلك الفعل يسمى الحضانة كما تفعل الطيور مع بيضها، ويستمر ذلك العمل حتى يوم التاسع عشر وفي يوم العشرين تنكسر القشرة، ويخرج الفروج وذلك يسمى التطريح وعند تمام اثنين وعشرين يوماً، تخرج جميع الكتاكيت وأفضل الأوقات لفقس البيض في شهور أمشير وبرهمات وبرمودة، لأن البيض في تلك المدة يكون غزير الماء كثير البذرة صحيح المزاج والزمان معتدل صالح النشأة والتكوين وينبغي أن يكون البيض طرياً وفي تلك الأشهر يكثر البيض أيضاً[٥٣٨].

لفت انتباه الرحالة الأوربيون أيضًا التماسيح وطريقة صيدها في نهر النيل بكثرة وأطلقوا عليها أسم السحلية ولكنها كبيرة الحجم أو يشبه التنين وبلغ طوله من ٦ إلى ٨ أذرع، وظهره خشن وعلى جلده قشور سميكة وذات فم كبير، ولا يستطيع المرء اصطياده بسهولة[٥٣٩]، وقد شاهد الرحالة الألماني فون هارف Von Harff مدى قوته وقدرته على اصطياد فريسته فعندما تتقدم الحيوانات نحو النيل للشرب يباغت الحيوان من الخلف ويسحبه من قدميه ثم يفترسه وذلك الحيوان ليس له دبر لخروج الفضلات بل يخرج من فمه عن طريق طائر صغير يقف على فمه ويأكل ما يلفظه من جوفه[٥٤٠]، وقد اعتاد المصريون على صيد تلك التماسيح من نهر النيل، ومن المؤكد أن كثرة التماسيح في النهر قد شجع الكثير على ممارسة تلك الهواية فضلاً عن استخدامها في مجالات عديدة، منها أنهم بعد اصطيادها يقومون بسلخ جلدها

([٥٣٨]) البغدادي، رحلة البغدادي، ص ٨٠ – ٨٣.

([539]) Frescobaldi , A visit to the Holy Places , p. 43 , Souriano , Treaties on the holy Land , ,194 , Langnon , Le Saint Voyage, p. 75 , Adler , Jewish Travelers , p. 223.

([٥٤٠]) المقريزي، الخطط، ج١، ص ١٠٨، السيوطي ؛ حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٣١٨.

Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 98.

وتجفيفه وبيعه إلى الأجانب وقد شاهد فون هارف جلد التمساح في كنيسة مريم العذراء في روما وقيل له أنه جلد تنين ولكن عندما جاء إلى مصر عرف إنه جلد تمساح. [٥٤١]، أما الرحالة بيرو طافور فقد شرح لنا طريقة صيدها فذكر أنه إذا أراد أحد قتلها استل حربه تنتهي بسهم ذي شوكتان تنفذ في اللحم إذا دخلته، وهي مستغرقة في النوم وقت النهار، وتمسك به ويربط طرف الحربة الآخر بحبل يبلغ طوله ما بين مائه ومائه وخمسين قامة فإذا اقترب الصائدون الحيوان ضربوه تحت ضلوعه وهي النقطة الوحيدة المكشوفة التي فيها هلاكه فيغرزون فيه الحديد ثم يشدون الحبل عليه شداً عنيفاً فلا يكاد الحيوان يحس بالإصابة حتي ينفلت إلى الماء فينهكه الحبل حتى تنحل قواه، وعندئذ يسحبونه إلى الشاطئ ويحملونه ويسيرون به في المدن والقرى يلتمسون الصدقات شأنهم في ذلك شأن أهل قشتالة حين يقتلون أحد الذئاب[٥٤٢].

شهد العديد من الرحالة الشرقيين والغربيين عند وصفهم للمدن المصرية والشامية نمواً ملحوظاً في التجارة الداخلية وازدهاراً واضحاً في حركة البيع والشراء داخل المدن المصرية والشامية، وذلك كان راجعاً إلى وجود نظام سياسي قويم، كما وجدت قوة عسكرية مملوكية كانت بمثابة القوى الواقية والحامية لذلك النظام الذي أقامه المماليك في مصر والشام، فأدى ذلك إلى زيادة الثروات وكثرة الأسواق والحوانيت، كما عملت الدولة على تحسين الأوضاع الداخلية للتجارة، فسمحت للكثيرين للعمل بالتجارة وتحقيق أرباح عظيمة، فعلى سبيل المثال قد أعجب الرحالة بمدينة القاهرة والتي بلغت أوجه ازدهارها ونشاطها في العصر المملوكي، حيث زاد عدد السكان نتيجة لفترات الهدوء والسلام بعد أن استطاع المماليك القضاء على الخطر المغولي ثم الصليبي، فأصبحت مصر الوطن الأمن للكثيرين، وأصبحت تموج بالحركة والنشاط وبوجود الأجانب والعرب من جميع الجنسيات ومن جميع الطوائف وخاصة التجار، كما كثرت بها الأسواق والبضائع والسلع المختلفة. [٥٤٣]، ولذا كانت

([541]) Harff ,Ibid , p. 98.

([٥٤٢]) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٦١ – ٦٢.

([٥٤٣]) ابن ظهيرة،الفضائل الباهرة، ص ١٨٥ ؛

مدينة غنية ومن السهل لمن يعيش فيها أن يتاجر ويعمل ويصبح ثرياً [٥٤٤]، كما وصفها بيلوتي بأنها أكبر المدن في العالم كما تحدث عن نيلها وشعبها وحركة التجارة فيها. [٥٤٥] وشهد طافور أيضاً بقوة حركة التجارة الداخلية في القرن الخامس عشرا لميلادي، حيث كثرت الفنادق والخانات والحوانيت وكثرت السلع وازدحمت كثيراً بالسكان، فكانت لا تهدأ بها الحركة ذهاباً وإياباً من الباعة والطباخين وحاملي الأطعمة والسلع المتنوعة. [٥٤٦]، أما مدينة دمشق فقد تميزت أيضاً بوفرة الغلال واللحوم والفواكه الطيبة والأقمشة الحريرية والصوفية، كما تمتعت دمشق بالجمال والعظمة ووفرة التوابل والأحجار الكريمة وزيادة عدد السكان ومنهم الحرفيين والتجار والصناع فكانت مدينة غنية وثرية أيضاً. [٥٤٧]، وأطلق مثل ذلك الوصف على باقي المدن الشامية أيضاً مما يدل على تمتعها بالثراء والغنى الداخلي واهتمام السلطات المملوكية بالتجارة الداخلية.

ورغم تلك الصورة إلا أن هؤلاء الرحالة لم يدققوا كثيراً في الوصف ولم يتعمقوا في داخل المدن حقيقة أنهم سجلوا ما شاهدوه ظاهرياً فقط، أما في الداخل فكانت الأمور أصعب وأسوء حالاً، خاصة في العصر المملوكي الثاني وبالتحديد في أواخر القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي وطوال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، حيث اصطبغ ذلك العصر بصبغة خاصة من عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وأثرت سلبياً على الأسواق من حيث عددها، وانعكس ذلك على حركة البيع والشراء في المدن المملوكية في مصر والشام.، وتحفل المصادر الإسلامية المعاصرة بالأمثلة العديدة التي تدل على الاضطراب السياسي

Adler ,Jewish Travellers , p. 166 , 226,Langnon , Le Saint Voyage, p. 114.

([544]) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud, p. 48.

([545]) Dopp , Le Egypte , pp.3-8.

([٥٤٦]) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٦٢ ؛ ٦٤ ؛ ٦٦ ؛ ٩٨

([٥٤٧]) فارتيما، رحلات فارتيما، ص ٢٨ – ٢٩.

Adler , op.cit , p. 199 , Nicolo , A voyage Beyond the seas , pp. 77- 78 , Wright , Early Travelers , pp.294 -295.

الداخلي وأثره على حركة البيع والشراء، فعلى سبيل المثال فيما بين سنة ٧٨١ هـ /١٣٩٧ م وسنة ٧٨٣ هـ / ١٣٨١ م أثناء النزاع بين الأميرين برقوق وبركة حول العرش، ثار المماليك في الشوارع بالقاهرة، فأنتشر الفزع والخوف بين العامة، وأغلقوا حوانيتهم وأغلقت أبواب القاهرة ثلاثة أيام حتى انتهت المحنة [٥٤٨]، ثم زاد معدل تلك الثورات والنزاعات في الشطر الأخير من ذلك العصر وزاد معدل التدهور السياسي الداخلي بفعل النفوذ المتنامي للمماليك الجلبان وعدم قدرة السلطان والأمراء على ردعهم ومن ثم تكررت حوادث الشغب والاضطرابات فضلاً عن حوادث نهب الأسواق وخطف البضائع والاعتداء على الناس في الشوارع والأسواق حتى أصبحت تلك الأمور عادية واضطرب البلاد وسكانها وتتوقف حركة البيع والشراء.

ومن الجدير بالذكر هنا أن نعرض لبعض الأمثلة الدالة على التدهور السياسي الداخلي وأثره على التجارة الداخلية، ففي سنة ٧٦٨ هـ / ١٣٦٨ م حدث صراع شديد بين السلطان الأشرف شعبان والأمير يلبغا الذي ولي سلطان آخر هو الأمير أنوك شقيق السلطان شعبان، وبذلك أصبح في الدولة اثنان على العرش واستمر القتال بين الطرفين لعدة أيام وطوال ذلك الوقت أغلقت أسواق القاهرة وتعطلت الأعمال والتجارة حيث يقول المقريزي ذلك وأسواق القاهرة طوال تلك الأيام مغلقة والأسباب معطلة وليس للناس شغل سوى التفرج على شاطئ النيل على المقاتلين السلطانية واليلبغاوية[٥٤٩].

أما حوادث المماليك الجليان فهي كثيرة ومتعددة ففي عام ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢م هاجم المماليك أحد كبار موظفي الدولة. [٥٥٠]، ثم استمر المماليك الجلبان اعتدائهم على الأمراء وكبار رجال الدولة دون قوة تمنعهم أو توقف عنفهم وثوراتهم، ففي العام

([٥٤٨]) المقريزي، السلوك، ج ٣ ق١، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٨.

ـ المماليك الجلبان: هم المماليك الصغار فى السن الذين يشتريهم السلطان لنفسه وكان يدفع ثمنهم من بيت المال أو من ماله الخاص كما أطلق عليهم أجلاب أو جلبان، انظر، عبد المنعم ماجد، نظم سلاطين دولة المماليك، ص ١٣.

([٥٤٩]) المقريزي السلوك، ج٣ ق١، ص ١٣٥ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٧٣.

([٥٥٠]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٨٢.

الثاني سنة ٨٧٨ هـ/ ١٤٧٣م هاجم جماعة من الجلبان الأمير يشبك الدوادار فهرب إلى الجيزة وبقي هناك خمسة عشر يوماً وامتنع المماليك من الصعود إلى القلعة، واعتكف السلطان قايتباي في القلعة احتجاجاً على تصرف المماليك، ولكن المماليك الجلبان أدركوا عدم قدرة السلطان على ردعهم، فعاودوا للشغب مرة أخرى رغبة في قتل الأمير يشبك و قام السلطان قايتباي وأمراءه بالاستعداد والتجهيز العسكري لقتال الجليان فاضطربت الأحوال وماجت القاهرة بالفوضى وأغلقت الأسواق[٥٥١].

لكن الفوضى والاضطراب استمرت فترات طويلة ذكرها ابن إياس في العقود الأخيرة من ذلك العصر، تلك الفوضى تسببت في تعطل الأسواق وإثارة الرعب والخوف والفزع نتيجة عما يصحبها من أعمال القتل والنهب والسرقة وسفك الدماء في الشوارع. [٥٥٢]، ورغم محاولات السلاطين المماليك لردعهم وإصدار الأوامر بعدم التعرض للتجار والباعة والناس في الشوارع والأسواق إلا أنه كان أمراً عادياً جداً لا يؤثر في الوضع ولا يحرك ساكناً فذكر ابن تغري بردي أنه مع مرور الوقت تزايد عبث الجلبان بمعايش الناس وسببوا لهم الخوف والفزع مما أدى إلى ارتفاع الأسعار في سائر الأشياء في المأكول والملبوس والغلال فأثر ذلك بحال الناس قاطبة رئيسها وخسيسها[٥٥٣].

وفي عام ٨٤١ هـ/ ١٤٣٧م خرج المحمل للحج في القاهرة وخرج مماليك السلطان من القلعة في الليل، وأخذوا في نهب الناس وخطف النساء والصبيان، وقاتلهم عدد كبير من العبيد السود، وسرقوا الأمتعة والسلع، وقد اعتاد المماليك النزول من القلعة إلى المواضع التي يجتمع فيها العامة للنزهة ويتفننوا في العبث والفساد ونهب البضائع والسلع، ورغم محاولات السلطان لصدهم إلا إنه لم يستطيع منعهم نهائياً واستمروا على عاداتهم السيئة[٥٥٤].

حدث في سنة ٨٥٩ هـ/ ١٤٥٤م أن قل الشعير وارتفع سعره وعز وجوده في

([٥٥١]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٩٣ -٩٦.

([٥٥٢]) نفسه، ج ٣، ص ١٤٧ ؛ ج٤، ص ١٣ ؛ ٣٦٣، ج ٥، ص ٤-٨.

([٥٥٣]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٦، ص ٩٨.

([٥٥٤]) المقريزي، السلوك ك، ج٤ ق٢، ص ١٠٢٦ – ١٠٢٧.

الشونة السلطانية، فقام المماليك الجلبان ليلاً بنهب شونة الأمير بردبك فخاف الأمراء على أنفسهم وفتحوا شونهم وفرق كل واحد منهم العليق والشعير على مماليكه لئلا يحدث مثلما حدث مع بردبك، وفي اليوم الثاني نزل المماليك الجلبان في الشوارع وأثاروا الفزع في نفوس الناس وسخروا من رجال الدولة والعلماء وخطفوا وسرقوا الأقمشة والسلع في وضح النهار. [٥٥٥] وفي عام ٨٦٠ هـ/ ١٤٥٥م حدثت حادثة أخرى دلت على مدى استهتار المماليك بالمصريين والأثر السيئ الذي تركوه في نفوسهم من الفزع والرعب والخوف وأثر سيئ آخر مدمراً على الاستقرار الضروري لرواج الأسواق، فقد حدث أن خرج جهاز عروس محمولاً على رؤوس الحمالين وعلى ظهور البغال في الشارع كما كانت العادة وتصادف أن مر أحد فرسان المماليك بجوار الموكب فوقعت قطعة نحاس أحدثت صوتاً مدوياً جعلت الحصان يرتجف، فغضب الفارس وضرب الحصان وساقه مسرعاً فلم تشك العامة في أن المماليك نزلوا إلى نهب الحوانيت فأغلقت الأسواق والحوانيت في الحال[٥٥٦]، وفي عام ٩٠٧ هـ ١٥٠١م تأخرت رواتب المماليك ثلاثة اشهر، فتمردوا على السلطان الغوري وهددوه فبدأ بالاستيلاء على أموال الناس وفرض الضرائب الباهظة وجمعها مقدماً لمدة عشرة شهور فحصل بذلك الضرر الشامل، وتعطلت الأسواق من البيع والشراء وغلقت غالب دكاكين القاهرة ووقع الاضطراب للغني والفقير وصار الناس بين جمرتين[٥٥٧].

وفي عام ٩١٦ هـ/١٥١٠م عجز قنصوة الغوري عن دفع مرتبات المماليك، فنزلوا إلى شوارع القاهرة ونهبوا سوق جامع ابن طولون وسوق الصليبية وسوق تحت الربع والبسطيين، وأغلقت بقية الأسواق ونهب المماليك الجليان في ذلك اليوم حوالي خمسمائة وسبعين حانوتاً وقدرت خسائر التجار بحوالي عشرين ألف دينار وكادت مصر أن تخرب عن أخرها في ذلك اليوم[٥٥٨].

([٥٥٥]) ابن تغري بردي، حوادث الدهور في مدي الأيام والشهور، ج٢، حرره وليام بيير، كاليفورنيا، ١٩٣٠ م، ص٢٣٠ -٢٣١.

([٥٥٦]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٦، ٩٦ -٩٧.

([٥٥٧]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٤، ص ١٦.

([٥٥٨]) نفس المصدر السابق، ص ٢١٦.

ومن بين العوامل المؤثرة في حركة الأسواق والتجارة الداخلية، هي نظام طرح البضائع، وتقوم فكرة ذلك النظام على أن تفرض الدولة بعض السلع والبضائع المتوفرة لديها على التجار بالسعر الذي تحدده وتراه بالكمية التي تريدها بغض النظر عن حاجة السوق ولا يحق للتاجر الرفض أو المساومة على السعر. ويبدو أن الدولة قد اتبعت ذلك النظام عندما كانت تسوء الأحوال المادية وترغب في سد نفقاتها الخاصة ومواجهة المتاعب المالية.، كانت تتعطل الأسواق في ذلك الوقت نتيجة انشغال التجار بشراء ما تطرحه الدولة من بضائع ففي عام ٨٢٩ هـ/١٤٢٥م بعد الاستيلاء على جزيرة قبرص وأسر ملكها أمر السلطان برسباي بجمع التجار لشراء الغنائم، فتعطلت أسواق القماش عدة أيام لانشغال التجار [٥٥٩]، وفي عام ٨٧٥ هـ /١٤٧٠م ذكر الصيرفي أن مصر أصبحت في ألم شديد من عدة وجوه وهو أن الأساكفة طرح عليهم من ديوان الدولة جلود في مقابل مصنوعات جلدية بأسعار زهيدة، كما تعطل تجار الحوانيت من أول شهر رمضان إلى نصف الشهر بسبب بيع تركة أحد الأمراء المماليك [٥٦٠].

تلك السياسة هدفت إلى رفع الأسعار للسلع أكثر من سعرها الأصلي وضد رغبة المشترين فضلاً عما كان يتحمله التجار والعامة من خسائر مادية فادحة من جراء تلك السياسة [٥٦١] فأدى ذلك إلى هروب بعض التجار حين كانوا يعجزون عن دفع الثمن المطلوب ففي عام ٩١٧ هـ/١٥١١م طرح السلطان قنصوة الغوري على التجار في الأسواق زيتاً وعسلاً وزبيباً وأصناف بضائع يخسرون فيها الثلث وكانت النتيجة أن هرب التجار وأغلقت الأسواق عدة أيام[٥٦٢].

بالإضافة إلى عوامل أخرى أثرت على التجارة الداخلية تمثلت في قلة عدد السكان نتيجة للأوبئة والمجاعات وفرض ضرائب متنوعة وباهضة و سياسة التغيير

([٥٥٩]) المقريزي، السلوك، ج ٤ ق٢، ص ٧٢٨.

([٥٦٠]) الصيرفي، إنباء الهصر بأنباء العصر، ص ٢٦١.

([٥٦١]) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص.

([٥٦٢]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٤، ص ٢٤٢.

النقدي التي أدت إلى قلة عدد الأسواق في الشام ومصر أو دمجها أو تغيير لأسمائها واختفى بعضها. فذكر المقريزي أن بمدينة القاهرة ومصر وظواهرها من الأسواق شيء كثير جداً قد باد أكثرها وكفاك دليلاً على كثرة عددها أن الذي خرب من الأسواق فيما بين أرض اللوق إلى باب البحر بالمقص اثنان وخمسون سوقاً أدركناها عامرة فيها ما يبلغ حوانيته نحو الستين حانوتاً وتلك من جملة ظاهر القاهرة الغربي فكيف ببقية الجهات الثلاثة مع القاهرة ومصر [٥٦٣]، أما الإسكندرية المدخل الهام لمصر فقد كانت السياسة الملوكية السيئة سببا في جعلها مدينة شبه مهجورة وغير مأهولة بالسكان رغم جمالها وحسن مساكنها التي أصبحت لا تساوي شيئا[٥٦٤].

- التجارة الخارجية:

تمتعت مصر والشام منذ بداية العصر المملوكي بعلاقات تجارية قوية مع الدول الإسلامية والدول الأجنبية، حيث استطاع السلاطين المماليك تحقيق هدوء نسبي ملحوظ في المنطقة بعد صد هجمات المغول وسقوط بعض الإمارات الصليبية في بلاد الشام، ثم عقد مهادنات مع الدول الأجنبية من ناحية ومع الإمارات الصليبية الباقية في بلاد الشام من جهة أخرى، فسنحت الفرصة للسلطان المملوكي عقد اتفاقات تجارية قوية ومستمرة على المدى الطويل، وزاد حجم التبادل التجاري مع الدول الأوربية، وكما زاد نشاط التجار الأجانب في المدن الشامية الواقعة في أيدي الصليبيين وتوثقت العلاقات التجارية بين الشرق الإسلامي وبين الغرب المسيحي، وكذلك زاد نشاط هؤلاء التجار الأجانب في المدن المصرية الساحلية رغم عدم السماح لهم بالتواجد والإقامة في مدة تتراوح ما بين أربعة أشهر إلى ستة أشهر وهي المدة الكافية لتحقيق أغراضهم التجارية، أما القنصل الأجنبي فقد كان مسموحاً له بالإقامة لمدة عام واحد وأحياناً تمتد المدة إلى ثلاثة أعوام فقط إلا أن بعض التجار الأجانب عاشوا متنقلين بين موانئ مصر والشام وأوربا.

هناك عوامل عديدة ساهمت في اتجاه التجار الأجانب نحو موانئ مصر والشام وساعدت في تطوير وتحسين التجارة الخارجية مثل العوامل الخارجية:

([٥٦٣]) المقريزي، الخطط، ج٣، ص ١٥٣.

([564]) Dopp , Le Egypte , p. 36.

كان للعوامل الخارجية أثرٌ واضحٌ في قدوم الأجانب إلى مصر من جنسيات مختلفة وأهم تلك العوامل، هو مدى استقرار الأحوال على طرق التجارة البرية والبحرية في آسيا وأفريقيا وأوربا فقد كان الطريق المعتاد لسلع الشرق الأقصى إلى ساحل البحر المتوسط هو الطريق البحري من موانئ الصين مارا بالهند ثم الخليج العربي لتصل إلى البصرة، ثم تصعد نهر دجلة إلى بغداد فالموصل لتحملها القوافل إلى حلب أو دمشق، ومنها إلى موانئ الساحل الشمالي فى طرابلس وبيروت وغيرهما من الموانئ[٥٦٥] في انتظار السفن لنقلها إلى بلدان أوربا، بينما يتجه فرع آخر شمالا إلى ديار بكر فأرمينيا ثم القسطنطينية مستودع سلع الشرق والغرب والشمال والجنوب معا، ومن العاصمة البيزنطية توزع على جميع أنحاء أوربا، وكان هناك طريق أخر غير الخليج العربي، وهو طريق البحر الأحمر ثم الموانئ المصرية كعيذاب والقصير ومنها تنقل البضائع بالقوافل إلى قوص على نهر النيل لتصل القاهرة وأحيانا كانت تصل أقصى شمال خليج السويس عند القلزم ومن تلك المدينة تنقل بالقوافل إلى القاهرة ومنها عبر فرع رشيد ثم الإسكندرية أو فرع دمياط[٥٦٦]، حيث تنقلها السفن إلى أوربا وبلدان شمال أفريقيا وهناك فرع آخر يتجه شمالا إلى موانئ الشام.

لكن بعد سقوط عكا آخر معاقل الصليبين على ساحل الشام فى أيدي المماليك (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م) فرضت البابوية حربًا اقتصادية على مصر، ومنعت السفن المسيحية من الاتجاه إلى الثغور المملوكية في مصر والشام وكلفت فرسان الداوية بمراقبة تنفيذ تلك المقاطعة وأسر أي سفينة تخالف تلك الأوامر [٥٦٧]، لذلك بحث الغرب المسيحي عن طريق جديد لاتصاله بالشرق الأقصى بعيدًا عن أراضي الدولة المملوكية وحاول تدعيم الطريق البرى من أوربا إلى فارس والهند المار ببلاد الدولة البيزنطية[٥٦٨]. ولكن يبدو أن معظم التجار كانوا يفضلون الطرق البحرية.

---

(١) هايد، تاريخ التجارة، ج٣، ص ٣٣١ – ٣٣٢ ؛ عزيز سوريال، الحروب الصليبية، ص ١٦٤.

(٢) عزيز سوريال، الحروب الصليبية، ص ١٦٤.

Lopez and Raymond , Medieval trade in Mediterranean world,new york,1955,pp.29-32.

(3) Thompson ,(j. w.) , History of the middle ages , London ,1931, p. 29.

(4) نعيم زكى فهمى، طرق التجارة، ص ١١٧ ؛ وتنفيذا لأوامر البابوية تعاونت بعض الدول الأجنبية

ونظرًا للاضطرابات التي تعرضت لها مناطق وسط آسيا وفارس والعراق والشام وآسيا الصغرى منذ القرن الثالث عشر الميلادي – القرن السابع الهجري بسبب ظهور المغول فى آسيا، وامتداد نفوذهم في المنطقة وإقامة إمبراطورية عظيمة على حساب الشعوب الآسيوية وقيامهم بتدمير الطرق التجارية البرية القديمة بين الصين من جهة وآسيا الصغرى من جهة أخرى فأصبحت غير آمنة وغير صالحة للسفر وعمتها الفوضى والاضطراب [٥٦٩]، وذلك ما أكده الرحالة ماركو بولو وأشار إلى عدم وجود الأمان في ذلك الطريق وتعرضه لاعتداءات اللصوص وقطاع الطرق على القوافل التجارية والمسافرين[٥٧٠]، ومما زاد الأمر سوءا هو تصاعد الحروب والغزوات المستمرة في آسيا في نهاية القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي، فأدت إلى انهيار الإمبراطورية المغولية في فارس وظهور تيمورلنك الذي قاد عدة حملات مدمرة في غرب آسيا [٥٧١]، ثم الصراعات الدائرة بين الأمراء التركمان والمماليك أو تلك الحروب التي نشبت بين الصفويين والعثمانيين في العراق وآسيا الصغرى، فامتنعت السفن الشرقية الواردة من الصين والهند من دخول الخليج الفارسي وهرمز والبصرة[٥٧٢].

مع المغول لتحويل طريق التجارة إلى الخليج الفارسي وذلك بإرسال بعض السفن عبر الخليج الفارسي إلى المحيط لفرض حصار على عدن واعتراض السفن وإجبارها على الدخول في الخليج وهكذا يتم قطع الطريق المصري إلى الهند عبر البحر الأحمر ولكن ذلك الطريق لم يكن سهلًا ولم يحقق الربح المطلوب نظرًا لطول المسافة وتدخل السلطات المملوكية لحماية طرقها وجذب الأجانب إليها.

(٥٦٩) هايد، تاريخ التجارة، ج٣، ص ٢٩٩ ؛ سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص ٢٩٧ ؛ جورج كيرك، موجز تاريخ الشرق الأوسط، ترجمة عمر اسكندر، القاهرة، ب.ت، ص ٨٠.

(٥٧٠) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج١، ترجمة وليم مارسدن، عبد العزيز جاويد، الهيئة العامة، ١٩٩٦م، ص ٢٠٢ – ٢٠٣.

(٥٧١) جوزيف نسيم، دراسات فى تاريخ الشرق والغرب، الإسكندرية، ١٩٨٣م، ص ١٤٣ ؛ هايد، تاريخ التجارة، ج٣، ص ٢٦.

(٥٧٢) نعيم فهمى زكى، طرق التجارة، ص ١٢٤.

بالإضافة إلى عامل آخر جعل المواني المصرية والشامية أهم وأقوى المواني في منطقة البحر المتوسط، هو الاستيلاء المماليك على دولة أرمينية الصغرى عام ٧٧٧هـ/١٣٧٥م ثم خراب وتدمير ميناء فماجوستا القبرصي والذي كان مركزاً لكافة البضائع المتوفرة من كل الأمم المسيحية، ولذلك كانت جميع القوافل تصل إلى بيروت وطرابلس من دمشق، ومن هناك يتحرك التجار بسفنهم ويتجهون إلى فماجوستا فكانت المدينة مركز تجمع السلع الشرقية ثم أستولي عليها الجنوية عام ٧٧٦ هـ /١٣٧٤م واستعادها ملك قبرص، ثم عادت إلى أيدي البنادقة، وبسبب ما تعرضت له المدينة من معارك ومنافسات عليها مستمرة فقدت قوتها الاقتصادية ونتيجة لسيطرة الجنوية ثم البنادقة على المدينة فقد أغلقت الميناء لصالح البنادقة، مما أدى إلى اتجاه الدول الغربية إلى موانئ بيروت والإسكندرية وتركوا الموانئ الجنوية والبندقية و فماجوستا، وكان يمر بذلك الميناء سنوياً ما يتراوح من ٦٠ إلي١٠٠سفينة مختلفة الأحجام والحمولة، وكل سفينة تنقل ما بها إلى القاهرة وسوريا بحمولة تقدر بحوالي مائه ألف ديناراً ذهباً، وهكذا اتجه التجار الأوربيين نحو الموانئ المصرية والشامية بصفة أساسية(٥٧٣).

كما أن ظهور العثمانيين في آسيا أثر بصورة كبيرة على تلك الطرق حيث اتجه العثمانيون إلى حرب التوسع على حساب جيرانهم من مسلمين ومسيحيين على السواء والتي استمرت حتى أوائل القرن السادس عشر الميلادي – القرن العاشر الهجري فأدى ذلك إلى سقوط القسطنطينية في سنة ٨٥٧ هـ /١٤٥٣م، وما تلاه من عمليات حربية في البر والبحر أدت إلى إرباك تلك الطرق المارة بأراضي الدولة البيزنطية، ثم قيام السلطان العثماني بالقبض على الأجانب في المدينة، مما أدى إلى رحيلهم عن القسطنطينية، وأغلقت الأسواق وفقدوا أحيائهم ونتيجة لذلك خشى الأجانب على أموالهم وأرواحهم، فاضطروا إلى هجر الطرق التي هددتها الحروب وجعلتها غير آمنة، ولم يجدوا أفضل من الطريق الذى يمر بالأراضي المصرية وهو بعيد عن مسرح تلك الأحداث الدامية(٥٧٤).

---

(573) Dopp , Le Egypte , pp. 54-57.

(٥٧٤) نعيم فهمى، طرق التجارة، ص ٣٧ ؛ هايد، تاريخ التجارة، ج٣، ص ١٦٥ – ١٧٠ ؛

Poston (T.) , The Cambridge economic history, Cambridge,1952 ,vol 2 , p.

كما أن الحروب الصليبية قد ساهمت بشكل واضح في تطوير حركة التجارة الخارجية، حيث سيطرت المدن الإيطالية على البحر المتوسط، وكانت الوسيط التجاري بين الشرق والغرب واستفاد الغرب من تلك الحروب بحصوله على أسواق وأحياء تجارية قائمة في بلاد الشام، وسهلت له فرصة الحصول على السلع والبضائع الشرقية ومما لاشك فيه أنه لولا الحروب الصليبية لم تكن المدن الإيطالية تستطيع أن تقيم لها أسواق تجارية مستمرة في الشرق، أو يعرف الناس في أوربا استخدام السكر والتوابل وغيرها[٥٧٥].

بالإضافة إلى العوامل الداخلية المتمثلة في أن السلطة المملوكية قد عملت على حماية التجار الأجانب وتحسين العلاقات معهم وسمحت لهم بالقدوم إلى مصر في كل الأوقات، وعقدت اتفاقيات تجارية هامة ووفرت لهم خدمات وتسهيلات عديدة لهم، مما شجع على ازدهار التجارة الخارجية حيث أعتاد السلاطين المماليك على إصدار المراسم لإغراء التجار للقدوم إلى الدولة والإقامة بها، مؤكدين على مبدأ الحرية والأمان التام لهم وعدم تعرضهم لسوء أو خطر [٥٧٦].

وتنفيذاً لتلك المبادئ حرص المماليك على تحذير نوابهم في الثغور من سوء معاملة الوافدين وأمروهم بحسن ومراعاة العدل في جمع الضرائب منهم وقد أورد القلقشندي رسالة صادرة من السلطان المملوكي المنصور قلاوون إلى ناظر ثغر الإسكندرية وفيها يأمره بحسن معاملة التجار الواردين إليه بالعدل والرفق .... فإنهم هدايا البحور ودوالبة الثغور ومن ألسنتهم يطلع ما تحبه الصدور وإذا نشر لهم الإحسان نشروا له أجنحة مواكبهم كالطيور[٥٧٧]، وفى عام ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م قدمت رسل البندقية بهدية وسألوا الرفق بهم والمنع من ظلمهم وألا يؤخذ منهم إلا ما جرت

---

99 –102.

([575]) Day (C.) , History of Commerce , New York , 1940 , P. 87 , Painter ,(S.), A history of the middle ages , New York , 1954 , p. 219.

([٥٧٦]) ابن عساكر، الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور، تحقيق، عبد السلام تدمري، بيروت، ١٩٩٨ م، ص ١٧٤ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٤١ ؛ ٦٩.

([٥٧٧]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ٤٢١.

به عاداتهم وأن يمكنوا من بيع بضائعهم على ما يختارونه فرسم السلطان لناظر الخاص بثغر الإسكندرية بألا يتعرض لبضائعهم ولا يأخذ منهم شيء إلا بقيمته ولا يلزمهم بشراء ما لا يختارونه وأن تأخذ منهم على كل مائة دينار دينارين فقط وكانوا من قبل يؤخذ منهم أربعة دنانير ونصف دينار وذلك رغبة في تشجيع حركة التجارة الخارجية [٥٧٨].

كما استطاع الأشرف قايتباي تشجيع العلاقات التجارية مع الدول الأوربية ففي عام ٨٩١ هـ / ١٤٨٦ م تسلم هدايا من سفير فلورنسا وتلاها في ٥ محرم ٨٩٣ هـ / ١١ نوفمبر ١٤٨٧ أرسل له السلطان زرافة جميلة وأسد وحيوانات وعطور شرقية. [٥٧٩]، وليس أدل على تحسين التجارة الخارجية وتوسعها في العصر المملوكي مما ذكرته المصادر والمراجع المعاصرة، حيث أوضحت بعض المراجع الأوربية أن عدد السفن الأوربية التجارية كانت كثيرة فقد كانت البندقية ترسل أسطول تجاري يتألف من ٦ إلى ١٠سفن تجارية إلى بيروت في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، وما بين ٢ إلي ٤ سفن في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، وسبب ذلك يعود إلى الحروب العديدة والطواعين المتكررة والحالة الاقتصادية العامة والتي كانت من شأنها أن تحد من مستوى النشاط التجاري وتقليصه [٥٨٠].

كما ذكر الرحالة أرنولد فون هارف أنه أثناء ذهابه إلى بيت المقدس عام ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م ركب سفينة تجارية وبرفقتها سفينة أخرى مسلحة لحمايتها من خطر القراصنة في البحر المتوسط وذكر أن مجلس السناتو البندقي قد حدد عدد السفن المتجهة إلى الشرق بحوالي ١٤ سفينة خصصت كل اثنين للإسكندرية، بيروت، طرابلس، شمال أفريقيا، القسطنطينية، يافا والتي اعتاد الحجاج أن يبحروا كل سنة

([٥٧٨]) المقريزي، السلوك، ج٢ ق٣، ص ٦٧٠ ؛ Schefer , Le Voyage de Thenaud , p. 122.

([579]) Wolff ,How many miles? , p. 33.

([٥٨٠]) هايد، تاريخ التجارة، ج٣، ص ٣٣٦ ؛ سمير علي الخادم، الشرق الإسلامى، ص ١٤٢.
Lane , Venice Maritime Republic , p. 200 – 201.

على متنها للذهاب إلى القدس وكانت قيمة السلع التي تعود بها السفن البندقية بحوالي ٢٠٠.٠٠٠ دوكة ذهبية [٥٨١]، وفي فترة الخريف كانت المراكب المرسلة سنوياً من البندقية إلى الإسكندرية عادة قافلة مؤلفة من ٤ إلى ٦ سفن [٥٨٢].

ونتيجة لما سبق وجدت جاليات أجنبية كثيرة في دمشق من البنادقة وقطالونيا وفلورنسا وجنوة وتجار فرنسيين اهتموا بشراء العديد من السلع وخاصة التوابل التي ينقلونها إلى بيروت ثم السفر في السفن إلى ناربون[٥٨٣]، كما أوردت كتب الرحالة الأجانب معلومات تفيد بوجود عدد كبير من الأجانب في مدينتي الإسكندرية والقاهرة من جنسيات عديدة، وبأعداد مختلفة من الأرمن والأحباش واللاتين واليونانيين والمسيحيين الوافدين من جورجيا وغيرهم الذين أتوا لتحميل السلع المصرية والشرقية غالية الثمن والقيمة للحصول على أكبر ربح مادي. [٥٨٤]

بالإضافة إلى بعض التجار الأجانب الذين كان لهم دور فعال في العلاقات السياسية والاقتصادية بين السلطات المملوكية والدول الأجنبية مثل برتراندو ميجنانلي Bertrando de Mignanelli والذي أرتبط بعلاقة صداقة قوية مع السلطان برقوق، وكان تاجراً إيطاليا كتب سيرة السلطان الذاتية وعاش في دمشق فترة طويلة حتى أصبح رجلاً ثرياً، وكان له حظ وافر في التجارة، كما عمل لدى السلطان برقوق مترجماً، وعمل كذلك كوسيط أو سفير رسمي مرسل من قبل فيكونت ميلان إلى السلطان ليسمح له بإعادة بناء كنيسة الميلاد في بيت لحم بناء على طلب الراهب الفرنسيسكاني في دير جبل صهيون، وأن الدوق سيتحمل النفقة والإصلاح بعد فترة استطاع ذلك التاجر الحصول على الإذن بتحقيق ذلك الغرض [٥٨٥].

([581]) Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , pp 69 -71.

([582]) Dopp , Le Egypte , p. 97.

([583]) Wright, Early Travelers , pp. 293 – 295.

([584]) Frescobaldi , A visit to the Holy Places , p. 47 , Dopp , Le Egypte, p. 75 , Ghistele , Voyage en Egypte, p. 113 , Ludolph , Description of the Holy land , 46 , See Also , Atiya , the latter crusades ,p. 193.

([585]) Wolff , How many miles?, p. 26.

أيضًا كان هناك بعض الأجانب الأوربيين الذين اتصلوا بالسلاطين المماليك وتوطدت بينهم صلات الصداقة والمحبة، وقاموا ببعض المهام الخاصة للسلطان مثل، التاجر الجنوي سكران الذى بلغ من الثراء والقوة الاقتصادية ما لم يبلغه كثير من التجار الأوربيين فى ذلك الوقت، مما أدى إلى اتصاله بالسلطان المملوكي وحقق نجاحا ملحوظا فى علاقته به ولذا اعتمد عليه الناصر محمد بن قلاوون في تنفيذ مهمة جليلة، ففي سنة ٧١١هـ/١٣١١م أسر فرنج جزيرة المصطكي رسل السلطان وباعوهم فطلب منه السلطان أن يعيد هؤلاء الأسرى المسلمين وبالفعل استطاع تنفيذ المهمة بنجاح[٥٨٦]، أما التاجر بيلوتي الكريتي فهو تاجر بندقي الأصل ولد في جزيرة كريت التي كانت تابعة لجمهورية البندقية وتخضع لسيادتها، ولما بلغ سن الخامسة والعشرين اشترك في قافلة تجارية ذاهبة إلى الإسكندرية واستمر يعمل كتاجر متجول في موانئ الشرق والغرب لمدة خمسة وثلاثين عامًا[٥٨٧]، وقد لعب ذلك التاجر دورا سياسيا هاما في الدولة المملوكية حيث يرجع إليه الفضل في عودة الأسرى المسلمين الذين أسرهم القراصنة في سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م في مياه أضاليا – أيام حكم السلطان الناصر فرج بن برقوق - وباعوهم في جزيرة ناكسوس التابعة للبندقية وعندما طلب السلطان من

---

(3) محمد بن بهادر، فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر، (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٩٧٧تاريخ)، ورقة ٤٨٤ ؛ ابن أبي الفضائل، المفضل بن أبى الفضائل، النهج السديد والدر الفريد، ج٣، تحقيق blochet، باريس ١٩١٩م، ص ٧٠٤ – ٧٠٥.

(1) Atiya, the latter crusades. 208; Dopp , le relation Egypte – Catalonia et les corsairs au commencementduSiecleleCaire1949,p.2.

- جزيرة المصطكي: يقال أنها تسمى جزيرة خيو او خيوس فى البحر المتوسط ويجمع منها علك المصطكى ومنها يحمل إلى البلاد المجاورة ولذلك تسمى بجزيرة المصطكى، أنظر، الأدريسي، نزهة المشتاق، ج٢،ص ٦٤١؛ والمصطكى هو شجرة عطرية يؤخذ من جذعها هذا السائل الذى يستعمل فى صنع منجزات طبية حيث يستخدم فى العلاج ويؤخذ عن طريق شقوق فى اللحاء الا ان المادة المتجمدة على الشجرة نفسها افضل بكثير من النوع الذى يسقط على الارض ويصدر منه كميات كبيرة لبلاد شرق البحر المتوسط وخاصة على اسواق دمشق والقاهرة والاسكندرية وغيرها، انظر، هايد، تاريخ التجارة، ج٤، ص ١٣٨-١٣٩.

القنصل البندقي بالإسكندرية التدخل لاستعادة هؤلاء الأسرى رفض ذلك بحجة أن الجزيرة ليست تابعة للبندقية ؛ ولذا فقد تعرض التجار البنادقة في الإسكندرية كالعادة للمصادرة والطرد فاجتمعوا ودفعوا مبلغًا ضخمًا قدر بحوالي ألف بيزنطي وتولى التاجر بيلوتي الكريتي مهمة افتداء الأسرى المسلمين وعودتهم سالمين إلى القاهرة [٥٨٨]. حقيقة كان ذلك العمل التطوعي بداية نجاحه الحقيقي مما سمح له بالتجول فى القاهرة والإسكندرية، ثم اعتمد عليه الناصر فرج بن برقوق مرة أخرى في عقد الصلح بين مصر وجنوة بعد تأزم العلاقات بينهما، ونتيجة لتلك الثقة استمر بيلوتى الكريتي في التنقل ما بين القاهرة وكريت والبندقية، وظل يتمتع بالصفة السياسية و التجارية حتى نهاية عصر السلطان برسباي[٥٨٩].

كما كان له دور في عمليات القرصنة التي قام بها القراصنة الأجانب على الشواطئ المصرية والشامية بمساندة البابوية وذلك لأنه قد ألف كتابًا عن الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في الدولة المملوكية في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي وأهداه للبابا كمحاولة منه لتحريض البابا والغرب المسيحي لشن هجوم على مصر[٥٩٠]، وكذلك التاجر الفرنسي جاك كير الذى كان على صلة مباشرة بالسلطان جقمق واستطاع أن يعقد صلحًا بين السلطان وبين ملك رودس بعد هجوم القوات المملوكية على جزيرة رودس في سنة ٨٤٨هـ/١٤٤٤م [٥٩١].

---

(2) هايد، تاريخ التجارة، ج٣، ص ٣٣٠ ؛ Dopp , l' Egypte , p. 85 – 89 ; See Also , Hill (G.) , History of Cyprus, vol 2 , (Cambridge , 1972) ,. p 453 – 455.

(3) حسين النحال، الحروب الصليبية المتأخرة علي مصر وتونس، دكتوراة غير منشورة، عين شمس، ١٩٩١م، ص ١٢٢.

(267) أحمد دراج، علاقة المماليك بالفرنج، ص ٢٠٣.

(268) محمد مصطفى زيادة، " المحاولات الحربية للاستيلاء على رودس "، ترجمة جمال الدين الشيال، مجلة الجيش ١٩٤٦م، ص٢٠٢ ؛ أحمد مختار العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص٦٠٦.

- جاك كير: وهو من أسرة عريقة فى فرنسا ذات أصول تجارية عقد اتفاقية تجارية مع مصر لصالح فرنسا وتولى مناصب مرموقة ولكنه اتهم بقتل زوجة ملك فرنسا وسجن ثم هرب إلى صديقه البابا فى روما وتوفى عام ١٤٥٦م ؛ مزيد من التفاصيل، انظر، عزيز سوريال، الحروب الصليبية، ص ١٩٠ ؛ Ziada,(M.M) The Foreign relation of Egypt in 15 century London , 1967, pp.239–241.

ونتيجة للتعاون بين الدول المملوكية وأوربا فرضت البابوية عقوبات اقتصادية على السفن الأجنبية لمنع تزويد السلطات المملوكية بالسلع الأساسية مثل الخشب والحديد والأسلحة والأغذية والسلع الأخرى ومن حاول مخالفة ذلك القرار تعرض لعقوبة الحرمان الكنسي، وقد حدد البابا نيقولا الرابع (٦٧٩-٦٩٢هـ) (١٢٨٠ – ١٢٩٢ م) قراراً بمنع إرسال المواد الغذائية لمدة عشر سنوات إلا أن ذلك لم يكن ذا فائدة لأن البابا بونيفاس الثامن (١٢٩٤ – ١٣٠٣ م) مد فترة إرسال المواد الغذائية عشر سنوات أخرى ثم أعلن البابا بنوا الحادي عشر (٧٠٣-٧٠٦هـ) (١٣٠٣ – ١٣٠٦ م) أنه بإمكان البنادقة تزويد السلطان المملوكي بالسلع الغير هامة، ولكن البابا كليمون الخامس (٧٠٦-٧١٤هـ) (١٣٠٦ – ١٣١٤ م) بدأ عهده بالتحضير لحملة صليبية جديدة وبدأ من خريف ٧٠٨ هـ/ ١٣٠٨ م بإصدار سلسلة من القرارات يمنع بموجبها إرسال كافة السلع إلى الشرق وكل من يخالف ذلك يتعرض للمصادرة والحرمان الكنسي وقد تضررت البندقية من تلك القرارات واتهم البابا بعض تجارها بالفسق وحرمهم من حقوقهم الشرعية والمدنية [٥٩٢].

استمرت سياسة البابوية حيال التجار الأوربيين غير ثابتة على مبدأ واحد فهي تارة متشددة وتارة أخرى مرنة فعند غزو قبرص للإسكندرية تشددت البابوية في قراراتها، وأحكمت الخناق على الأوربيين حتى اضطروا إلى الرضوخ لأوامرها، ولكن سرعان ما عادت الأمور كما كانت عليه واستطاعت الدول التجارية الحصول على تراخيص جديدة لاستئناف التجارة مع الشرق في مقابل أموال هائلة تكدست في خزانة الكنيسة واستمر الوضع هكذا حتى تلاشى تأثير البابوية في أوربا خلال القرن الخامس عشر[٥٩٣]، في حين كانت ترى البابوية في إصدار تلك القرارات فرصة لاستعادة هيبتها بين المسيحيين الغربيين، ومع ذلك لم تسترد قوتها، كما رأت في صدور التراخيص مصدرًا هامًا للحصول على الأموال لإرسال حملات صليبية إلى الشرق ولكنها انشغلت في الصراع الذى احتدم داخل القارة الأوربية بين بابوات روما

([٥٩٢]) مارينو، كتاب الأسرار، ص ١٠-١١.

Deeping , Histoire de Commerce , tome 2 , p 196.(270)

وبابوات أفينون، وانقلبت الصورة تمامًا فبعد أن كانت البابوية تسيطر على العالم المسيحي الغربي بما فيه الإمبراطورية أصبحت في أخريات العصور الوسطى أداة في يد الحكام لذلك لم تنفذ قرارتها، ولم تحترم آراؤها إلا إذا كانت فيها مصلحة للشعوب، وليس أدل على ذلك من وثيقة جنوية مؤرخة في ٨ ذو القعدة ٧٠٣هـ / ١٤ أكتوبر سنة ١٣٠٤م – ولم تكن قد انتهت مدة العشر سنوات – ثبتت وجود قنصل جنوى مقيم بالإسكندرية بالإضافة إلى وجود فندق للجنوية مفتوحًا للوافدين الذين جاءوا سرًّا إلى مصر بدون علم البابا[٥٩٤]، كما أكد الرحالة لودولف الذى زار الإسكندرية في ٧٣٧ – ٧٤٢ هـ / ١٣٣٦ – ١٣٤١ م وجود كثير من التجار البنادقة في المدينة وهم يمارسون نشاطهم الاقتصادي، ويتمتعون بحريتهم الدينية في الكنيسة المرقصية[٥٩٥].

أما الوثائق الخاصة بجمهورية بيزا بين عامي٧٠٥ هـ / ١٣٠٥م، ٧٢٣ هـ / ١٣٢٢م فقد زودتنا بمعلومات عن توافد جالية بيزية في الإسكندرية ووجود قنصلية بيزية أيضًا فضلًا على أنه كان مفروضًا على القنصل أن يدفع لخزينة كاتدرائية بيزا إيرادات فندق الجالية البيزية[٥٩٦]، أما أراجون فقد أصدرت قرارا يحرم على رعاياها التجارة مع البلاد الخاضعة للسلطان المملوكي وفقا لقرارات البابوية ولكن توتر العلاقات بين البابوية وملك أراجون وقشتالة من ناحية وقيام بعض التجار الأراجونيين بصورة غير رسمية وفردية بالإبحار إلى مصر من ناحية أخرى[٥٩٧]، أضطر ملك أراجون خايم الثاني Jame ii (١٢٩١ -١٣٢٧ م) لعقد معاهدة تجارية وعسكرية مع السلطان المملوكي، ففي عام ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣م أرسل سفيرًا إلى الناصر محمد بن قلاوون يطلب منه أن يرد له اثنى عشر ألف بيزنطة أخذت من تجار أراجون في جمرك الإسكندرية[٥٩٨]، مما يدل على موافقة الملك على وجود رعاياه في الدولة

---

(271) هايد، تاريخ التجارة، ج٢، ص ٢٦٧ – ٢٦٨.

(272) Ludolph, Description of the Holy land, p. 46.

(273) هايد، المرجع السابق، ج٢، ص ٢٦٨.

(٥٩٧) محمد محمود النشار، علاقة مملكتى قشتالة وأراجون بسلطنة المماليك، ص ٢٠٥ -٢٠٦.

(2) Atiya (A. S) , Egypt and Aragon , Leipzig , 1938 , p.20.

المملوكية كما أثبتت المصادر المعاصرة وجود قنصلية قطالونيا في الإسكندرية وفندق قطالوني يستقبل من وقت لأخر تجارًا و سفراء من برشلونة[٥٩٩]، وهكذا كانت الدول الأوربية تتحايل على القرارات البابوية وتستغل حاجتها إلى المال وتحصل على تراخيص خاصة بالإضافة إلى انشغال الغرب المسيحي والبابوية بتوحيد جهودهما في العصر الوسيط المتأخر إلى محاربة الأتراك في أوربا، وبذلك لم يعد ممكنا أمام الدول الأوربية السفر برًّا أو بحرًا إلى آسيا وأفريقيا إلا عن طريق أملاك وأراضي الدولة المملوكية.

كانت السلطات المملوكية تفرض في بعض الأحيان رسوم وضرائب باهظة على التجار الأجانب، سواء على السلع الواردة أو الصادرة وخاصة على البهارات والتوابل لدرجة أنها كانت تتكلفت أكثر من ثمنها الأصلي، فأحدث ذلك خسائر كثيرة تحملها سكان أوربا من الفلاندرز وألمانيا وسائر البلاد المسيحية[٦٠٠]، وكثيراً ما اشتكي التجار الأجانب من ارتفاع الأسعار وسوء معاملة المماليك والتجار المسلمين وعمال الجمرك ومن التعسفات والقرارات القاسية التي فرضتها السلطات المملوكية على التجار بصفة عامة سواء المسلمين أو المسيحيين الأجانب، ففي عام ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤م تقدم قنصل البندقية بشكوى إلى السلطان فرج بن برقوق بسبب تعسف وقسوة والي الإسكندرية وعمال الجمرك، حيث أساءوا معاملة التجار البنادقة ورغم أنهم تعرضوا للقرصنة ومخاطر السفر في البحر المتوسط إلا أنهم ظلوا يتوافدون على الشواطئ والموانئ المملوكية بصفة دائمة ولكن نتيجة لما حدث فقد قرروا العودة ومغادرة البلاد لحين تحسن الأوضاع [٦٠١].

جاء إلى مصر السفير الفلورنسي فيليبس برانكاشي عام ٨٢٦ هـ / ١٤٢٢م لمقابلة السلطان برسباي ليطلب منه منح بلاده ورعاياه نفس الحقوق التي منحها للتجار البنادقة والجنوية، وخاصة أن الفلورين الذهبي وهو العملة المتداولة في فلورنسا في

---

(٣) هايد، تاريخ التجارة، ج٢، ص ٢٦٣.

(600) Dopp , Le Egypte , p. 75.

(601) Ibid , pp. 83- 84.

ذلك الوقت كان لها نفس الفائدة والقيمة للعملة البندقية في البلاد المملوكية [٦٠٢]، ثم بالغ السلطان المملوكي في تعسفه ضد الأجانب، حيث منع إقامة القبان لوزن البضائع، وامتنع الناس عن بيع التوابل للتجار الأجانب وألزمهم بشراء الفلفل السلطاني ١٢٠ ديناراً للحمل الواحد في حين كانت قيمته مع التجار ٨٠ ديناراً فقط فأخذوا جزء منه وامتنعوا عن شراء الباقي، وعادوا إلى بلادهم، وتركوا كميات كبيرة من الفلفل في ميناء الإسكندرية فشمل بذلك الضرر والخسارة لكثير من التجار المسلمين والأجانب[٦٠٣]، وازدادت تلك القسوة وأضطر قنصل الجنوية عام ٨٣٢ هـ / ١٤٢٨م ومعه بعض التجار إلى الهرب دون دفع الديون المتبقية عليهم للديوان السلطاني، والتي قدرت بحوالي ٢٠ ألف دينار نتيجة لارتفاع الأسعار وعند رحليهم قابلوا مركبين قادمين من بلادهم فعرفوا ما حدث في ميناء الإسكندرية فاضطر الجميع إلى العودة إلى جنوة[٦٠٤]، وفي العام الثاني الزم السلطان برسباي الأجانب بشراء حمل الفلفل ١٣٠ ديناراً رغم أن سعره في القاهرة كان ٥٠ ديناراً فقط[٦٠٥]، واستمر ذلك الوضع فترة طويلة في عهد قايتباي والسلطان الغوري حتى اشتكى جميع الأجانب، وأرسل الملوك والحكام السفراء والرسل لحث السلطان المملوكي على حسن معاملة رعاياهم في بلاده [٦٠٦].

كما امدتنا سفارة دومينيكو تريفزاني البندقي إلى القاهرة عام ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م بمعلومات هامة تدل على مدى الاضمحلال السريع للتجارة الأجنبية، فقد اشتكى التجار المسلمون إلى السلطان الغوري من قلة سفن البنادقة في الموانئ المصرية والشامية، حيث أنهم لم يشاهدوها إلا مرة كل عامين ولا تزيد في كل مرة عن ٣ سفن فقط، و كانوا يستوردون كميات كبيرة من النحاس والزيت، أما الآن فقد قلت الكمية، كما كان يمكث في الإسكندرية بعد رحيل السفن التجارية ١٥ تاجراً أجنبياً

([602]) Dopp , Le Caire , p. 127.

([٦٠٣]) العسقلاني، إنباء الغمر، ج ٨، ص ١٧١.

([٦٠٤]) المقريزي، السلوك، ج٤ ق٢، ص ٨٢٤.

([٦٠٥]) المقريزي، نفس المصدر، ص ٨٦٩.

([٦٠٦]) نفسه، ص ٩١٤ ؛ العسقلاني، إنباء الغمر، ج ٨، ص ٣٠٥ -٣٠٦.

يشرفون على التجارة، أما الآن فلا يوجد سوى ٤ أو ٦ عملاء فقط، وقد كانت المخازن تمتلئ ببضائع غالية الثمن وصلت قيمتها إلى ٣ مليون دوكة ذهبية، أما الآن فهم يشترون بأقل من ذلك بكثير وقد فسر السفير البندقي ذلك الوضع، بأنه راجعاً إلى عدم وجود الحرية التجارية للأجانب في الموانئ، وأكد له أن ذلك الوضع سوف يسبب خسارة فادحة للطرفين [٦٠٧].

نتيجة لسوء المعاملة نقصت أعداد السفن الأجنبية الوافدة وبالتالي نقص أعداد التجار الأجانب والذين اقتصروا على البنادقة والجنوية والقطالونيين فقط وتدهورت منظمة الفندق ووصل عدد الفنادق إلى ٣ فقط في الإسكندرية، أما الدولة الو حيدة التي كانت باقية بصفة شبه مستمرة فهي البندقية، حيث أكد فيلكس فابري على عظم التعامل بين مصر والبندقية في أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي الذي أقام في فندق للبنادقة بالإسكندرية، وكان مندهشًا لما رآه من كميات هائلة من جوالات وصناديق البضائع التي ازدحمت بها ساحة الفندق الداخلية وكذلك المخازن حيث لم تتح لأحد المرور بينها وكذلك الفندق الثاني الخاص بهم[٦٠٨]، كما أكد أيضاً تينو أن التجار الأوربيون كانوا يتوافدون على مصر بسبب الكسب المادي من التجارة الشرقية والتي بلغت أرباحها في بعض الأحيان مائة في المائة، وفي أحيان أخرى أكثر من ذلك على بعض البضائع القليلة، ولكنها غالية الثمن والقيمة[٦٠٩]، ولكن تلك الظاهرة لم تكن أساسية وواضحة فسرعان ما كانت تسوء الأحوال مرة أخرى، وتتعسف السلطات المملوكية في معاملتها للسفن القادمة مما أثر تأثيراً سلبياً على حركة التجارة الخارجية وعلى الاقتصاد المملوكي، فقد شهد التاجر بيلوتى الكريتي تزايد معدل التدهور ورأي في زمانه أن سعر منزل ما كان يساوي قبل ذلك ثلاثة أو أربعة آلاف دوكات، صار يساوى أربعمائة فقط لكي تستخدم مواد البناء التي به مثل الرخام الذي كان يستخرج

---

(٦٠٧) شاريل ديل، جمهورية البندقية، ص ١٥٢ ؛ نعيم زكي، طرق التجارة، ص ٤١٢- ٤١٥ ؛
Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. xxxi.

(608) Fabri , Le Voyage en Egypte , tome 2 , pp. 694-695.

(609) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 27.

من أرضيات المساكن ويعاد تجميعه لتزيين مباني القاهرة فأصبحت الإسكندرية مدينة مهجورة[٦١٠]، ومع حلول عام ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م دخل السلطان الغوري مدينة الإسكندرية لم يكن بثغرها أحد من أعيان التجار لا من المسلمين ولا من الفرنج وكانت المدينة في غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور معاونيه في الميناء حيث صاروا يأخذوا من التجار العشر عشرة أمثال فامتنع التجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلي الثغر فتلاشي أمر المدينة وآل أمرها إلي الخراب حتى قيل أنه طلب الخبز بها فلم يجد ووجد بعض الدكاكين مفتحة والبقية خراب لم تفتح[٦١١].

نخلص مما سبق أن الازدهار التجاري في سلطنة المماليك كان راجعا إلى حيوية الطرق البحرية والبرية، التي تربطها بالشرق من جهة وبالغرب من جهة أخرى، وقد حافظت الدولة المملوكية على فرض سيطرتها على تلك الطرق فترة طويلة، وظلت فترة الازدهار التجاري باقية مادام بقى الاتصال مباشراً مع الهند والصين وانتهت بعد أن تحول الطريق حول إفريقية على يد البرتغال، وقد عمل المماليك وسطاء لأهم السلع التجارية الشرقية، واستوردوا سلع أوربية هامة وأساسية.....

لذا سنعرض لبعض السلع والبضائع الصادرة والواردة، كانت مصر والشام سوقاً رائجاً لتصدير واستيراد سلع وبضائع الهند وجنوب شرق آسيا وبلاد العرب، حيث حمل تجار الكارمية المسلمين تلك البضائع من البحر الأحمر والمحيط الهندي، ولم يسمح للتجار المسيحيين حملها والوصول إلى البحر الأحمر، ثم تنقل إلى أسواق مصر والشام وموانيها، ومنها تشحن في السفن الأوربية وأهم تلك البضائع، التوابل والفلفل والزنجبيل والحرير والسكر بكميات كبيرة [٦١٢]، وكذلك الأفاوية (تعنى النباتات العطرية والأعشاب الطبية) والقرفة والقنب والأقمشة والمنسوجات وخاصة

([610]) Dopp , Le Egypte , p. 36.

([٦١١]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٤٢٤.

([٦١٢]) مارينو سانوتو، كتاب الأسرار، ص ١٠٤.

الأقمشة الكتانية، حيث كان الكتان المصري من أجود أنواع الكتان في العالم، وتميز برقته وليونته ونعومته، وكذلك أثواب الحرير الخالص [٦١٣]، وكانت مصر تصدر إلى أوربا المصنوعات الخشبية عالية الجودة وصدرت أيضًا السمك المملح إلى قبرص ورودس[٦١٤].

أما بيروت فكانت تصدر الزبيب الذي يصنع من العنب المجفف وكذلك الخمور التي تصنع من الكروم وكذلك المنتجات القطنية والسكر [٦١٥]، كما صدرت مصر المخللات إلى البندقية والقسطنطينية [٦١٦]، وقد ذكر أحد الرحالة اليهود أن السفن الأوربية الآتية إلى مصر مرتين في العام كانت تشتري كميات كبيرة من السلع المتنوعة تصل إلى ٣٣٠٠ نوع من البضائع والسلع أهمها التوابل والأدوية [٦١٧].

أما السلع الواردة إلى الموانئ المصرية والشامية كان أهمها الأخشاب، حيث افتقرت الدولة المملوكية إلى وجود الأخشاب، ولذلك كان غالي الثمن ونادر والوجود فاستوردته من تركيا وقبرص والبندقية [٦١٨]، وأتت في السفن الأوربية الأقمشة الصوفية من الفلاندرز وبرشلونة والبندقية والمرجان الباهظ الثمن بكميات كبيرة من برشلونة و قطالونيا والفراء المصنوع من جلود السنجاب والسمور الأبيض والزعفران والفضة والأقمشة الصوفية من قبرص والبندقية، وكذلك الفضة والكريستال [٦١٩].

كما استوردت سلع أكثر أهمية مثل، الأسلحة والخيول والحديد والخشب

([٦١٣]) مارينو سانوتو، كتاب الأسرار، ص ١٠٤ -١٠٥ ؛ Dopp , Le Egypte , pp. 45 , 58.

([614]) Ibid , pp. 21, 27.

([615]) Frescobaldi , A visit to the Holy Places , p. 147.

([616]) Dopp , Le Egypte , p. 37.

([617]) Adler , Jewish Travelers , p. 173.

([618]) Harff ,The Pilgrimage of Arnold Von Harff , pp.109 -110 , Nicolo , A voyage Beyond the seas , p. 91.

([619]) Dopp , Le Egypte , pp.48 – 50 , See Also , Wolff , How many miles?, p. 85.

والسلع الغذائية [٦٢٠]، وكانت مصر تستورد الفضة بكميات كبيرة من البندقية لصنع العملات الفضية، وكذلك الذهبية وقدرت قيمتها بحوالي ٣٠٠.٠٠٠ دوكة ذهبية [٦٢١]، وأيضاً كانت الخمور تأتي من أوربا وكنديا (كريت) في براميل مغطاه بالقماش الكتاني، وكان سعر البرميل يتراوح ما بين ١٤ – ١٥ دوكة ذهبية [٦٢٢]، ومن تركيا الحرير والشمع والزعفران والسمن والصوف والعبيد [٦٢٣] وكان يفضل العبيد المغول وتراوح سعرهم من ١٣٠ – ١٤٠ دوكة ذهبية، ويليه الجركسي من ١٠٠ -١١٠ دوكة، ثم اليوناني والألباني والصربي اقل سعر [٦٢٤]، وأحيانا كانت السفن الأجنبية تجلب معها الحبوب لتبيعها في ميناء الإسكندرية، فقد ذكر أحد الرحالة اليهود أنه كان في السفينة التي جاء فيها من البندقية حمولة من الحبوب قدرت بحوالي ٢٠٠ طن حبوب أراد قائد السفينة بيعها في الإسكندرية [٦٢٥]، كما طلب الرحالة بيرو طافور من قبل الملك القبرصي من السلطان المملوكي أن يسمح للتجار القبارصة بيع الملح في الشام دون ضريبة على ذلك فوافق السلطان على طلبه [٦٢٦].

أما عن العملات التي وجدت في مصر والشام، فكانت نوعين هما، عملات محلية وعملات أجنبية، فالعملات المحلية كانت الدرهم والدينار والفلوس، وتميز الدينار والدرهم بأن وزنهما غير محدد وغير ثابت وكثيراً ما حدث تغيير علي تلك العملات المحلية وفقاً للظروف السياسية والاقتصادية ووفقا لتوفر المادة الخام من الذهب والفضة، وكان الغالب في الدنانير التي سكت في مصر في عصر المماليك أنها ناقصة الوزن وكأنهم جعلوا نقصها في نظير كلفة ضربها علي حد قول القلقشندي[٦٢٧].

([٦٢٠]) مارينو سانوتو، كتاب الأسرار، ص ١٠.

([٦٢١]) نفس المصدر، ص ١٠٥ ؛ Harff ,op.cit , p. 114.

([622]) Souriano , Treaties on the holy Land , , p. 191 , Ibid , p. 119.

([623]) Dopp , Le Egypte , p. 60.

([624](Dopp , Ibid , p. 15.

([625]). Adler , Jewish Travelers , p. 218

([٦٢٦]) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٦٩.

([٦٢٧]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٤١ ؛ مزيد من التفاصيل عن تزييف النقود وتغير

وذكر فريسكو بالدي أن هناك ثلاثة أنواع من العملات مثل النقود الفضية (الدرهم) ونقود نحاسية غير مسكوكة (الفلوس) وعملة ذهبية محلية (الدينار)، ولكن كلها بالوزن وغير ثابتة عكس بقية العملات الأجنبية [٦٢٨] أما العملات الأجنبية التي وجدت في عصر المماليك هي الدوكة التي كانت العملة الوحيدة في أوربا والتي انتشرت في الشرق بصفة أساسية وربما يرجح ذلك إلى أن البندقية كانت الأولى في حمل المسافرين والحجاج والتجار إلى مصر والشام وكانت المدينة الوحيدة المسيطرة على منطقة البحر المتوسط منذ عصور قديمة نتيجة لتفوقها البحري والتجاري ولذلك كانت عملتها أكثر رواجاً وتداولاً في سلطنة المماليك وذلك لأن وزنها أيضًا ثابت مما جعل منها العملة المفضلة في كل الشرق أكثر من العملات المملوكية[٦٢٩]. وأكد الرحالة اليهودي عوبديا سنة ٨٩٤ هـ / ١٤٨٨ م ذلك بقوله: كان على اليهودي الذي يفد إلى القدس أن يدفع عشرة دراهم فضة عند بوابة المدينة وكل واحد يهودي مضطر لدفع ٥٠دوكة ذهبية سنويا للنائب في القدس كي يصرح له بصنع النبيذ وبيعه [٦٣٠].

وأوضح القلقشندي وصفًا للدوكة: قال إنها معلومة الأوزان وكل دينار منها يعتبر بتسعة عشر قيراطا ونصف قيراط من المصري وتلك الدنانير المشخصة على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس الحواريين الذين بعث بهما السيد المسيح إلى روما ويعبر عنها بالدوكات أو بالأفرنتية وأصلها فرنسي[٦٣١].

حاول السلاطين المماليك التغلب على انتشار تلك العملة الأجنبية، فأصدر

وزنها، انظر، المقريزي، السلوك، ج٢ ق١، ص ٢٠٥- ٢٠٦، ص ٢٥٣، ج٢ ق٣، ص ٦٦٩، ٧٧١ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ٧٧ ؛ الصيرفي، إنباء الهصر، ص ١٣٣ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٠، ٢٩.

([628]) Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , pp , 47 , 88.

([629]) Dopp , Le Egypte , p. 49 ,See also, Wolff , How Many Miles to Babylon ? , p.80.

([630]) Adler ,Jewish Travelers , p. 242.

([٦٣١]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٤١.

السلطان فرج بن برقوق دنانير جديدة على وزن الدينار الأفرنتي، وجعل وزنها ثابت وسميت باسم الناصرية ولكنها في الحقيقة أقل في الوزن من العملة الأفرنتية، وفي عهد المؤيد شيخ أصدر عملة أخرى سميت بالمؤيدية، وبعده أصدر الأشرف برسباي عملة أخرى سميت بالأشرفية لمنافسة الفلورنتي الذي يسك في فلورنسا والذي انتشر بصورة واضحة في أواخر عهده وخاصة بعد عام ٨٢٦ هـ / ١٤٢٢م نتيجة لتحسن العلاقات بين فلورنسا والدولة المملوكية، ولكن على أية حال فإن تلك العملات المحلية والأجنبية لم تكن منافسا قويا للدوكة البندقية الذهبية والتي ظلت منتشرة في مصر والشام لفترات طويلة جداً بلا نزاع. [٦٣٢] كما وجدت عملة أخرى في بيت المقدس في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، حيث ذكر الراهب فيلكس فابري أنه كان يوجد في القدس عملات فضية ألمانية وعليها الصليب وكانت من الفضة الجيدة[٦٣٣].

- وصف الموانئ المصرية والشامية:
- ميناء الإسكندرية:-

يعد ميناء الإسكندرية واجهة مصر على البحر المتوسط وحلقة الوصل مع أوربا عامة والمدن الإيطالية خاصة، والدليل على ذلك كثرة أعداد الأجانب الوافدين إلى الإسكندرية، إما للتجارة، أو للعبور للحج إلى الأراضي المقدسة في سيناء وبيت المقدس حيث كان مفروضا على المسافرين الأجانب عند المرور بمصر أن يحصلوا على تصريح بالسفر إلى بيت المقدس من السلطان المملوكي، كما وجد فيها العديد من القناصل والسفراء الأجانب من مختلف الجنسيات لمباشرة ورعاية تجارتهم وأعمالهم في مصر وحماية رعاياهم ولذلك أقيمت لهم الفنادق الخاصة بهم ولذلك تعتبر الإسكندرية وميناؤها محطة رئيسية في البحر المتوسط لا يستغني عنها وأهم ثغور

([٦٣٢]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٤١– ٤٤٢ ؛

Dopp , Le Egypte ,pp. 49 -50 , Wolff , op. cit , p. 80.

([633]) Fabri , The Wanderning , vol 2 part 2, p. 138.

مصر قاطبة وأكبر مركز تجاري في حوض البحر المتوسط. ونظراً لأهميته حرص السلاطين المماليك على حمايته وتحصينه وبناء الأسوار والأبراج عليه إقامة حامية عسكرية على تلك الأبراج للدفاع عن المدينة والميناء أيضاً[٦٣٤].

كان بالإسكندرية ميناءان هما، الميناء الجديد والميناء القديم، فالميناء الجديد سمى مرسى البرج وقد أطلق عليه ذلك الاسم بسبب وجود برج للمراقبة عنده ويقع ناحية الشرق حيث يسمح فيه بدخول السفن الأجنبية فقط ذات الحمولة الكبيرة مثل سفن البنادقة والجنوية والبيازنة وغيرهم.[٦٣٥] ذلك الميناء رغم أهميته إلا أن به صخور عند مدخله تصطدم بها السفن الكبيرة فتتعرض للتحطيم والهلاك، لذلك كان يجب أن ترسي السفن خارج الميناء لمسافة ميل ثم تنقل ما تحويه السفن على مراكب وزوارق صغيرة إلى الشاطئ[٦٣٦]، وعلى الجانب الأيمن للميناء أقيمت خنادق صناعية وأسوار لحمايته وعلى الجانب الأيسر كان الفنار الذي استخدم للمراقبة وإنارة البحر للسفن القادمة [٦٣٧]، وقد ذكر الرحالة الألماني فون هارف أن ذلك الميناء واسع جداً وكبير المساحة، وعلى الشاطئ بنيت قلعة قايتباي محاطة بسوران من أجل حمايتها وتحصينها عسكرياً وجد بها ستون برجاً، وهناك هضبتان صناعيتان إحداهما وسط المدينة والأخرى في جانب المدينة وعليهما برجين مربعين الشكل بهما مراقب أو حارس يراقب حركة السفن الوافدة أو الراحلة من الميناء[٦٣٨].

ووصف الرحالة جلبيرت دي لانوي ذلك الميناء بأن طول مدخله يصل من ٧

([٦٣٤]) بنيامين التطيلي، رحلة بنيامين، ص ٣٥٦ -٣٥٨ ؛ العمري، مسالك الأبصار، ج٢، ص ١٥٠ -١٥١ ؛ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ٣٩ ؛ Frescobaldi , A visit to the Holy Places , p. 39.

([٦٣٥]) مارينو سانوتو، كتاب الأسرار، ص ٢٤٤ ؛ الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٧١ ؛ نعيم زكي، طرق التجارة، ص ٣١٢؛ Souriano , Treaties on the holy Land, p. 198, Schefer, Le Voyage de Jean Thenaud , p. 24 , Atiya , latter crusades, p.192.

([636]) Adler,Jewish Travellers, p.157,Baumgarten,The Travel of Martin Baumgarten, p.437.

([637]) Baumgarten , Ibid, p. 437.

([638]) arff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , pp 92 -94.

إلى ١٠ أذرع، وعرضه ميل ويصل محيطه إلى ٦ أميال، وبذلك فهو ميناء مستطيل الشكل، ويضرب البحر داخل الميناء، كما يمكن الدخول إلى اليسار إلى سور المدينة حيث المياه المستوية، وعلي بعد نصف ميل من مدخل المدينة ترسو السفن الشراعية ويصل عمق القاع هنا إلى ذراعين، وفي ذلك الميناء توجد عدة أماكن مستوية ولكن هناك موقعين مناسبين تماماً للسفن الكبيرة كما أنه ليس مغلقا بسلسلة حديدية وبينه وبين الميناء القديم مسافة ميل [٦٣٩]، وفي ذلك الميناء أيضًا ثلاث بوابات تقع جميعها إلى اليسار أحدهم باب صغير يسمى باب الجمرك ويعمل ثلاث مرات في اليوم فقط، والثاني إلى اليمين وبه ترسانة السفن، ثم الباب الثالث الكبير لدخول الناس ذهابا وإياباً[٦٤٠].

أما الميناء القديم فيقع جهة الغرب من المدينة وسمي بمرسى السلسلة وأطلق عليه ذلك الاسم بسبب وجود سلسلة حديدية ضخمة تمنع دخول السفن الغريبة حيث ترسوا فيه السفن المسلمة الوافدة من شمال أفريقيا ولا يسمح فيه بدخول السفن الأجنبية على الإطلاق[٦٤١]، وذلك الميناء مستوى ولا يسمح بدخول سفن كبيرة الحجم وبلغ طوله ٧ أميال وعرضه ميل واحد فقط ونتيجة لاستوائه فإنه يصعب الرسو فيه إلا بعد أخذ الاحتياطات اللازمة[٦٤٢].

- ميناء رشيد:

يقع ميناء رشيد على الناحية الغربية لفرع رشيد على ساحل البحر المتوسط وهو ميناء متسع ويسمح فيه بدخول المراكب الكبيرة حيث تستطيع أن ترسوا على الجانب الأيمن للمنازل التي بنيت عليه، بالإضافة إلى تحصينه بالأبراج والقلاع

([639]) (otvin , Oeuvres de Ghillebert , pp. 103 – 105.

([640])Ibid , pp. 107-108.

([٦٤١]) الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٧١ ؛ هايد، تاريخ التجارة، ج ٣، ص ٣٠٢ ؛ Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 24 , Souriano , Treaties on the holy Land, p. 198.

([642]) Potvin ,op.cit , p. 102.

أيضًا[٦٤٣]، وكان ميناء رشيد حتى القرن ٩ هـ / ١٥ م ميناء حربياً لا يسمح فيه بدخول السفن الأجنبية باستمرار لخوف السلطات المملوكية أن يتمكن الفرنج بعد دراسة مجاري نهر النيل من النجاح للصعود عبر النيل إلى القاهرة بسهولة، كما كان يعتبر القاعدة البحرية الرئيسية لأسطول المماليك على البحر المتوسط، ولذلك كان دخول السفن الأجنبية غير مستحب [٦٤٤] وهنا كان يجب على المسافرين من رشيد أن ينتقلوا من رشيد إلى ميناء فوه جنوب المدينة ومنها عبر النيل إلى القاهرة. [٦٤٥]

- ميناء دمياط:

تميز ميناء دمياط بتعامله الأساسي مع موانئ سوريا وآسيا الصغرى وقبرص وكريت ورودس في شرق البحر المتوسط، ويذكر احد المؤرخين أن ميناء دمياط أصبح ميناء مصر الأول في القرن ٨ هـ / ١٤ م بدلاً من ميناء الإسكندرية خاصة بعد الغزو القبرصي لمدينة الإسكندرية وتدمير معظم المدينة والميناء [٦٤٦] وبذلك فإن ميناء دمياط كان مخرجاً لتجارة مصر وثغر هام للتعامل مع الساحل الشرقي للبحر المتوسط، ولكن لا تدخله السفن مباشرة بسبب شدة تيار نهر النيل في تلك المنطقة وبسبب ردم جزء منه أيام الظاهر بيبرس عام ٦٥٩هـ /١٢٦٠م خوفاً من الفرنجة، ولذلك لم يكن في استطاعة السفن الأجنبية الكبيرة الوصول إليه، فكانت ترسوا قرب مصب فرع دمياط وتستخدم القوارب الصغيرة حتى تصل إلى الميناء[٦٤٧]، وقد عمر الظاهر بيبرس دمياط بعد ذلك وأقام عند الميناء برجين وبينهما سلسلة حديدية تغلق

---

(643) Adler , Jewish Travelers , p. 105.

(٦٤٤) هايد، تاريخ التجارة، ج٣، ص ٣٠١ ؛ سمير الخادم، الشرق الإسلامي، ص ١٠٤

(645)Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , pp. 96 -97 , Adler ,Jewish,op.cit , p. 223 , Potvin ,op.cit,p. 111, Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten, pp, 438 -439.

(٦٤٦) جمال الدين الشيال، مجمل تاريخ دمياط، الإسكندرية، ١٩٤٩ م، ص ٤٦-٤٧.

(٦٤٧)المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٣٦١ ؛ القلقشندى، صبح الأعشي، ج ٣، ٤٠٤ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ٣٤٠.

ليلاً لمنع السفن القادمة من الدخول عبر النيل إلى داخل البلاد قبل أن يتم رؤيتها ومعاينتها[٦٤٨].

- ميناء تنيس: -

كان ميناء جيداً للسفن الصغيرة ومدخله شديد الاتساع، كما أنه كان عبارة عن لسان طويل بلغ اتساعه من ميلين إلى ثلاثة أميال، ولكن ذلك الميناء أتسم بالخطورة عند الدخول إليه أو الخروج منه في بعض الأوقات نظراً لجريان مياه البحر عكس تيار المياه العذبة الآتية من نهر النيل والتي تصب في البحر المتوسط. [٦٤٩]، كما وجد في المنطقة المحيطة بالمدخل كتل رملية كثيفة مما شكل خطراً على القوارب خاصة الغير معتادة على الرسو في ذلك الميناء، بالإضافة إلى وجود قبائل بدوية بالقرب من الميناء وهم لصوص يسرقون كل ما تصل إليه أيديهم فإذا رست سفينة هناك قام البدو بنهبها وسرقتها [٦٥٠]

- ميناء البرلس:

يقع ذلك الميناء بين رشيد ودمياط، وكان مفتوحاً للسفن الأجنبية من ناحية الغرب وترددت عليه العديد من السفن بسبب مجاورته لبحيرة البرلس التي كان بها أسماك جيدة يتم تصديرها إلى رودس وكريت، ورغم ذلك فقد ذكره الرحالة الأوربيون بصورة عرضية. [٦٥١]

- ميناء بولاق: -

كانت بولاق مركزاً وميناءً لتجمع المراكب البحرية لعرضها على السلطان فور الانتهاء من تجهيزها، ولم تكن قاعدة حربية، بل كانت تجلب إليها المراكب قبل القيام بالغزوات و التجاريد العسكرية لتمر أمام السلطان وتقوم ببعض التمارين

([٦٤٨])ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ١٨٥ ؛ Ghistele , Voyage en Egypte , p. 105.

([649]) Potvin , Oeuvres de Ghilleber,p. 138.

([650]) Ghistele ,op.cit,pp. 109-110.

([٦٥١]) هايد، تاريخ التجارة، ج٣، ص ٣٠١ ـ ٣٠٢

Ibid,p. 205 , Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 38.

والمناورات الحربية، وتدخل السفن إلى بولاق بكثرة محملة بالسلع والمتاجر من الشرق والغرب والجنوب، فتصل السلع من الإسكندرية عن طريق فرع رشيد، ومن موانئ الشام وتركيا عن طريق فرع دمياط، ومن الجنوب تأتي سلع الحبشة والنوبة، وأحياناً من البحرالأحمر عن طريق النيل وموانيه الجنوبية عند قوص، ونظرا لأن ذلك الميناء ومتاجره ووكالته كان مركز لتجارة القاهرة، فكان يوجد فيه رجال السلطة وعمال الجمارك دائمين لتحصيل الرسوم المستحقة على التجار الوافدين إليه وعلى المسافرين والعابرين فيه بصفة عامة. وذلك الميناء الواقع على نهر النيل كانت تأتى إليه كل أنواع السفن الكبيرة والقوارب الصغيرة وتصل أحيانا إلى ألف مركب وخاصة وقت حصاد المحاصيل وذلك لبيع السلع والبضائع المتنوعة والمختلفة [٦٥٢]، وأول من قام بتعمير المدينة والميناء هو السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٣ هـ / ١٣١٣ م وحلت محل المقس كميناء للقاهرة وكانت تأتي إليه كل أنواع الغلال حتى عرف بساحل الغلة. [٦٥٣]

- ميناء يـافـا:

كان ميناء يافا الثغر والمرسى الأساسي للسفن القادمة من الغرب الأوربي إلى بلاد الشام، والمنفذ الهام لبيت المقدس على البحر المتوسط [٦٥٤]، وقد تعرضت المدينة والميناء للتدمير عدة مرات طوال فترة الحروب الصليبية فتحطمت معظم المدينة وأصبحت قرية صغيرة تتألف من بضعة بيوت وأصبح الميناء شبه مدمر ولم يترك المسلمون شئ ملموس إلا برجين للحراسة تجاه البحر [٦٥٥]، وتكمن الخطورة في ذلك الميناء إلى وجود صخور تحاصر الميناء وهي على وشك السقوط، ولذلك لا تستطيع

([٦٥٢]) الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٨٥.

Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 35 , Ghistele, Voyage en Egypte, p. 57, Larrivaz ,Le Saints Peregrinations de Bernard , p. 51.

([٦٥٣]) المقريزي، الخطط، ج١، ص ١٤٣ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ٤٤.

([654]) Potvin , Oeuvres de Ghillebert, p. 139 , Wright , Early Travelers , p. 142.

([655]) Fabri , the wandering , vol 1 part 1 , p. 238.

السفن الكبيرة الوصول إليه بل تظل بعيداً عن الميناء قليلًا، كما يحاصر الميناء من جهة أخرى صخور صغيرة موضوعه بصورة هندسية تحمي الميناء بحيث تستطيع المراكب الصغيرة التحرك بحذر شديد، لأن الماء يندفع ويتحرك ويصطدم بالصخور بصورة مفاجئة فمن الممكن أن تتعرض تلك القوارب الصغيرة للتحطيم [٦٥٦] وهكذا كان ميناء يافا صغيراً يصلح للسفن الصغيرة أما السفن المسطحة فكانت تدخله بصعوبة شديدة وبه لسانان، أفضلهما وأكبرهما بالجنوب الغربي، والآخر بالجنوب الشرقي، وعلى عمق ٤ أميال في البحر يوجد مكان ملائم لرسو السفن الشراعية إلا أنها تواجه الرياح[٦٥٧]، وخاصة الرياح الشمالية في فصل الصيف والرياح الغربية في فصل الشتاء من أجل ذلك لا يتيسر للسفن أحيانا تفريغ بضائعها وإنزال ركابها، بل تسير بها إلى موانئ حيفا وبيروت، ثم إن قاع البحر به مزيج من الرمال والحصى ومواد لزجة أخرى لا يمكن إلقاء المراسي فيها بسهولة، ولذلك تكون السفن مستعدة للتحرك في أي وقت خوفاً من مفاجأة الرياح الغربية الشديدة أيضاً[٦٥٨].

- ميناء صور:

كان ميناء صور يشبه كف اليد حيث يحيط به البحر من جميع الجهات، ما عدا جانب واحد والذي يوجد به بوابة وتم تزويد ذلك الجانب بحصون قوية وأبراج وجدران وأسوار وخنادق أيام الحروب الصليبية، كما أنه يشبه ميناء عكا حيث يوجد به ميناءان لهما بابان واحد داخلي يطلق عليه باب البر خصص للسفن المحلية التابعة للمدينة، والآخر خارجي يطلق عليه باب البحر ومشيد عليه برجين خصصا للسفن الأجنبية، وبين الميناءين توجد أبراج عالية يربط بينهما سلاسل ضخمة تتحكم فى دخول أو خروج السفن [٦٥٩]، ورغم ذلك فإنه كان به عيوب وقصور أيضاً وهي

([٦٥٦]) محمد كرد، خطط الشام، ج٥، ص ١٥٠ ؛

Fabri , The Wanderning , vol 1 part 1 , p. 239.

([657]) Potvin , Oeuvres de Ghillebert , pp. 139 – 140.

([٦٥٨]) محمد كرد، المرجع السابق، ج٥، ص ١٥٠ ؛ Wright , Early Travelers , p. 286.

([٦٥٩]) ابن جبير، أبي الحسن محمد بن أحمد بن جبير، رحلة ابن جبير، تحيق محمد زينهم، دار المعارف، ٢٠٠ م، ص ٤٢١-٤٢٢ ؛ ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٦١-٦٢ ؛ بنيامين التطيلي،

وجود صخور من جهة الجنوب والتي كانت تعوق حركة الملاحة مما جعل السفن تدخل من جهة الشمال وتحاول تفادي الصخور إلا أنها كانت تتعرض للتحطيم نتيجة عمق المياه عند تلك الصخور[٦٦٠]، وهكذا كان ميناء صور غير آمنٍ نسبيا إلا أنه كان الميناء المناسب لكثير من السفن الأجنبية الوافدة إلى بلاد الشام خاصة بعد سقوط عكا وتدمير مينائها فكان أقرب ميناء لتلك السفن. وعلي أية حال فكان ذلك الميناء صالحاً لرسو السفن الكبيرة والصغيرة. [٦٦١]، ويبعد الميناء عن المدينة مسافة ٢ ميل بحرًا وبرًا وأمام المدينة توجد صخور ضخمة كبيرة وطويلة، ويمكن للسفن الشراعية التي تصل حمولتها من ٦٠ إلى ٨٠ طن الدخول للميناء كما أنه في مأمن عن الرياح نسبيا، وبه عدة مداخل بين الصخور، ولكنها لا تصلح لرسو السفن الكبيرة لأن المكان ليس عميقًا[٦٦٢].

- ميناء صيدا:

كان لموقع صيدا الجغرافي وقيامها على شبه الجزيرة ضاربة في البحر أعظم الأثر في جعلها ميناء تجاري هام وبها ميناءان، الأول ميناء في الشمال يحميه صفان من الصخور يشكلان حوضا مغلقا محميا من الرياح، وذلك الميناء الرئيسي كان مخصصا للسفن الصيداوية، وكان مدخله محاط بتحصينات من قلاع وأبراج أقيمت على صخور طبيعية ونتوءات بارزة لحماية السفن من العواصف والأنواء، وكان مدخله مغلق بسلسلة ضخمة تمتد بين برجين متقابلين، أما الميناء الآخر في الجنوب فأكثر مساحة وأكثر عمقا ويسهل إرساء السفن [٦٦٣]، وهكذا فإن ميناء صيدا كان ميناء

رحلة بنيامين، ص ٢٣٨ -٢٣٩

Theoderich , Guide to the holy land , trans by Aburey Stewart , 2 ed , New York , 1968 , p. 73.

([٦٦٠]) مارينو سانوتو، كتاب الأسرار، ص ٢٤١.

([٦٦١]) مارينو سانوتو، كتاب الأسرار، ص ٢٤١ ؛

Souriano , Treaties on the holy Land , p. 163.

([662]) Potvin , Oeuvres de Ghilleber, p. 147.

([٦٦٣]) محمد غلاب، الساحل الفينيقي في الجغرافيا والتاريخ، بيروت، ١٩٦٩ م، ص ١٤.

جيد ترسو فيه السفن والمراكب الصغيرة، أما الكبيرة فكانت تقف خلف الصخور بصعوبة شديدة مع الحذر والأمن. [٦٦٤]، وهو بذلك ملائم لكل أنواع السفن ويتسع عمقه للسفن التي تبلغ حمولتها من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ طن ويصل عرضه إلى ميل أو أكثر. [٦٦٥]، وأمام المدينة ميناء آخر صغير للسفن الصغيرة يطلق عليه الميناء الخارجي يرتكز على الجانب الشرقي من جزيرة صيدا المواجهة للمدينة وتحميه من الجهة الجنوبية الصخور والنتوءات، وزود عليه رصيف كانت ترسو عنده السفن الأجنبية[٦٦٦].

- ميناء بيروت:

كان ميناء بيروت المنفذ الرئيسي لمدينة دمشق على ساحل البحر المتوسط وكان يبعد عنها بيومين، ومياه ذلك الميناء هادئة لذا تلجأ إليه السفن في معظم أوقات السنة، ويزوره التجار الأجانب، واستقر بعضهم في المدينة بصفة دائمة من البنادقة والجنوية والقطالونيين والأرمن والجورجيين ولهم فنادق ووكالات وكنائس ونواب، وفيه وكلاء وفروع لشركاتهم وأعمالهم[٦٦٧]، ولكنه لم يكن آمناً من الرياح الشتوية، وهي الرياح الشمالية والشمالية الغربية، ولكن هناك مكانا آمنا على بعد ٢ ميل في البحر يمكن مرور السفن الكبيرة فيه وبالاقتراب نصف ميل براً يوجد الميناء، ولكنه مسطح ولذا يجب بقاء السفن بعيداً عن المكان قليلا. [٦٦٨]، كما كان لميناء بيروت ميناء آخر صناعيا وليس من تكوين الطبيعة، تم إنشاؤه على هيئة هلال وضع حديه من الأطراف كقرن في شكل برجين تصل بينهما سلسلة ضخمة لتنظيم حركة الملاحة داخل الميناء. [٦٦٩]

([664]) Souriano , Treaties on the holy Land , p. 163.

([665]) Potvin, Oeuvres de Ghillebert, p. 152.

([٦٦٦]) محمد غلاب، المرجع السابق، ص ١٤ ؛ L.O.C.

([667]) Harff,The Pilgrimage of Arnold Von Harff,pp.232-233 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 110.

([668]) Potvin,op.cit, p.157.

([٦٦٩]) أحمد عبد الله، التجارة في الساحل الشامي في القرنين ١٢، ١٣ م، ماجستير غير منشور،

- ميناء عكا:

تمتع ميناء عكا بشهرة واسعة أيام الحروب الصليبية، وذلك لعدة أسباب منها أن ذلك الميناء تحميه حماية طبيعية من جهات الشمال والشرق والجنوب فكان آمناً من العواصف والرياح، بالإضافة إلى وقوعه على نهاية طريق التجارة البري المار من وسط آسيا إلى غربها ومنها إلى سواحل البحر المتوسط الشرقية عبر بلاد الشام [٦٧٠]، كما أن مدينة عكا ذاتها تبوأت مكانة عالية وهامة في النشاط التجاري ساعد على ذلك حسن موقعها وحصانتها[٦٧١]، وقد شبهها ابن جبير في عظمتها وقوتها بمدينة القسطنطينية لأنها كانت مجمع السفن وملتقى التجار المسلمين والنصارى من جميع البلاد والأقطار[٦٧٢]، كما أن الميناء كان أنشط الموانئ التجارية على الساحل الشامي، وكانت الميناء الطبيعي لدمشق، وكذلك المنفذ الهام لتجار اليمن الذين سلكوا طريق الحجاج [٦٧٣] كما كانت قدرة الميناء الاستيعابية تتسع لرسو عدد كبير من السفن فقد ذكر الرحالة ثيودريش Theoderich أن عدد السفن كان يصل إلى ٨٠ سفينة في العام [٦٧٤]، ولكن وجد قصور وعيوب في ذلك الميناء حيث أنه كان لا يتسع للسفن الكبيرة الحجم بل السفن الصغيرة فكان لزاماً على تلك السفن أن ترسو خارج الميناء بعيداً عن الحاجز فتتعرض للرياح الغربية أو تتجه ناحية ميناء صور[٦٧٥]، ولكن فيما بعد تعرضت مدينة عكا وميناؤها للتدهور والاضمحلال نتيجة الحملات الحربية التي أرسلها السلاطين المماليك لطرد الصليبيين من بلاد الشام، ثم انتهت بسقوط عكا على يد السلطان الأشرف خليل بين قلاوون عام ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م، مما أثر تأثيراً سلبياً

آداب عين شمس، ٢٠٠٦ م، ص ٩٦

([٦٧٠]) أحمد عبدالله، التجارة في الساحل الشامي، ص ٨٥.

([٦٧١]) أسامة سيد علي، الساحل الشامي، في القرن ١٢ م، ماجستير غير منشور، عين شمس، ١٩٩٢ م، ص ١٩٢.

([٦٧٢]) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٢٤٠ -٢٤١

([٦٧٣]) ستيفن رنسيمان، الحروب الصليبية، ج ٣، ٦١٠

([674])Theoderich , Guide to the Holy Land , p. 60.

([٦٧٥]) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٦٢، رنسيمان، المرجع السابق، ج٣، ص ٦١٠

على المدينة والميناء معاً، وقل الاهتمام بالميناء أو الاتجاه ناحيته وقل عدد السفن الوافدة إليه، نتيجة لعدم الاهتمام به وإعادة ما خربته الحروب والمعارك فظلت عكا شبه مدمرة إلا أن المدخل في الشمال الشرقي اتسم بالاتساع والعمق، فسمح بدخول السفن الكبيرة حتى تصل إلى الصخور الضخمة التي تغلق البوابة، ولا يمكن دخول السفن الشديدة الفخامة[٦٧٦].

- **ميناء طرابلس:**

يأتي ميناء طرابلس في الأهمية التجارية بعد ميناء بيروت، خاصة أنه مخرجاً لتجارة حلب ومنفذها على البحر المتوسط[٦٧٧]، حيث توافد عليه تجار عديدين من الشرق والغرب، والتقوا بتجار من دمشق وحلب وبعلبك وحماة، كما أنه كان صالحا لرسو السفن الصغيرة فقط وتنزل فيه كافة البضائع، وعلى طول الميناء انتشر عدد كبير من المخازن الواسعة المليئة بالبضائع المختلفة والمتنوعة [٦٧٨]، كما أنه مأمون من الرياح والعواصف[٦٧٩].

- إجراءات دخول السفن إلى الموانئ المملوكية:

وصلت أعداد كثيرة من السفن الأجنبية للموانئ المصرية والشامية وحملت على متنها أجناساً متعددة وبضائع قيمة ومتنوعة في الحجم والشكل وقد خضعت تلك السفن لنظام تفتيش دقيق في الموانئ ووضعت الدولة إجراءات دقيقة عند استقبالها وعند رحيلها وتمت تلك الإجراءات على عدة مراحل: -

- المرحلة الأولى:

تمثلت تلك المرحلة في وصول السفينة إلى الميناء، ولم يكن مسموحاً بدخولها

([676]) Potvin, , Oeuvres de Ghillebert , p. 144.

([٦٧٧]) نعيم زكي، طرق التجارة، ص ١٥١.

([٦٧٨]) هايد، تاريخ التجارة، ج ٣، ص ٣٣٥ ؛

Souriano , Treaties on the holy Land , p. 172 , Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff, p. 224.

([٦٧٩]) ياقوت الحموي،شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ط١، بيروت، ١٩٧٩ م، ص ٢٨.

الميناء بدون الحصول على تصريح المرور ولذلك كان لابد أن تقف بعيداً عن الشاطئ - وخاصة في وقت المشاحنات والمعارك بين الجانب المملوكي والجانب الأوربي كما أن السلطات المملوكية خشيت من وجود جواسيس أو قراصنة على تلك السفن – وفي ذلك الوقت كان الحراس على أبراج المراقبة يقومون بالحراسة ليلا ونهارا ومراقبة البحر وعند ملاحظة ظهور أي سفينة يرسلون إشارات عن طريق تحريك بعض الأعلام الصغيرة، حيث يرفعونها ويشيرون بها ويحددون عدد السفن القادمة حتى يتمكن كل فرد من أخذ موقعه في الحراسة لتأمين مدخل الميناء[٦٨٠]، ونظراً لصعوبة الحصول على التصريح بسهولة فإن السفينة كانت تظل في البحر بعيداً عن الشاطئ لعدة أيام وفقا للأوضاع والظروف السائدة في ذلك الوقت، ثم تتقدم مراكب مملوكية صغيرة في عرض البحر إلى السفينة القادمة وعليها موظفون من الجمرك[٦٨١] يصعدون على ظهر السفينة، حيث يقومون بإحصاء أعداد الركاب والتحري عنهم وتحديد جنسياتهم وهدف الرحلة ونوع الحمولة على السفينة وحجمها، ثم تسجل كل المعلومات في سجلات خاصة، ويرسلها الموظف إلى الوالي باستخدام الحمام الزاجل والذي يرسلها بدوره إلى السلطان في القاهرة. [٦٨٢]

- المرحلة الثانية:

كان السلطان أو والي المدينة يرسل تصريحاً بالإذن بدخول السفينة للميناء، وعندئذ يقوم موظف الميناء بانتزاع أشرعتها ودفعها حتى لا ترحل بدون تسديد الرسوم المقررة عليها[٦٨٣]، ثم يقوم الحمالون والعمال في الميناء بنقل السلع والبضائع

([680]) Ghistele , Voyage en Egypte, pp ,108, 122 , See Also , Wolff , How Many Miles , p. 72.

([681]) Casola , Pilgrimage to Jerusalem , pp. 229 -230 , Adler, Jewish Travelers ,pp. 198,220 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , pp.20 – 21.

([682]) Ghistele,op.cit , pp.122- 123 , Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff pp. 92-93 ,Frescobaldi , A visit to the Holy Places ,pp. 37 -38.

([٦٨٣]) هايد، تاريخ التجارة، ج ٣، ص ٣٠٢ ؛ جاستون فيت، المواصلات فى مصر، ص ٤٠

Ghistele , Voyage en Egypte p. 122-123, Frescobaldi, A visit to the Holy

وأمتعة المسافرين من السفن إلى الشاطئ باستخدام البغال والحمير، ثم يقوم موظفي الجمرك بإحصاء البضائع مرة أخرى وتحديد حمولتها ونوعها. [٦٨٤]، ثم يقوم موظفون آخرون بتفتيش البضائع والأمتعة وإحصاء المسافرين وعددهم مثل الحيوانات وتفتيش الركاب تفتيشاً ذاتيا حتى سراويلهم خاصة وقت العداء بين المماليك والصليبيين وذلك للتأكد من عدم وجود أسلحة، أو أن يكون بينهم قراصنة أو جواسيس، وللتأكد أيضاً من الأموال التي يحملها المسافرون [٦٨٥]، وقد وضح الرحالة المسلم ابن جبير سوء معاملة موظفي الجمرك للركاب سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أجانب على حد سواء فذكر أن المسلمين القادمين إلى ميناء الإسكندرية تعرضوا للتفتيش واحداً واحدا وسجلت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم والسلع والبضائع في السفينة، واستمر التفتيش طويلا وامتدت أيديهم إلى ملابس المسافرين، مما آثار غضبهم وسبب لهم الأذى والذل وأحسوا بالمهانة. [٦٨٦]

أما في موانئ بلاد الشام وخاصة ميناء يافا، فكانت تتم فيه نفس الإجراءات التي اتبعت في كل الموانئ المملوكية باستثناء بعض الإجراءات الإضافية، حيث كان لابد على السفينة القادمة إلى ميناء يافا أن تبقي في الميناء يوما واحد فقط فى انتظار عودة الحجاج من بيت المقدس، وذلك كان ينطبق على حجاج بيت المقدس فقط، ولا ينطبق على الحجاج المتوجهين بعد ذلك إلى سيناء لزيارة دير سانت كاترين فهؤلاء لا يعودون عن طريق مصر[٦٨٧]، وكالعادة المتبعة في ميناء يافا عند وصول السفينة يجب أن يرسل قبطان السفينة رسالتين إلى حاكم رام الله وإلى حاكم بيت المقدس مع أحد البحارة ورسالة ثالثة إلى القيم على دير جبل صهيون، كما كان يجب على السفينة وركابها الانتظار حتى يأتي الرد مع البحارة، أو يأتي الحكام الثلاثة بأنفسهم إلى الميناء ويقدمون التصريح بدخول السفينة، ومتى يصل الرد فكان القيم على دير جبل

Places,p. 38.

([684]) Frescobaldi , op.cit, p. 38 , See Also , Wolff, How many miles? p. 81.

([٦٨٥]) الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٧١ ؛ Frescobaldi , Ibid.

([٦٨٦]) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٥١.

([687]) Fabri,The Wandering , vol 2 part 2 , pp. 213 -226.

صهيون يرسل اثنان أو ثلاثة من الأخوة الرهبان من الدير إلى والي القدس، ثم يعودون ومعهم صك الأمان من السلطان، ويؤذن للمسافرين النزول للشاطئ ودخول المدينة ويتم تفتيشهم وتسجيل أسمائهم وأعدادهم وإرسال نسخة إلى الوالي في بيت المقدس، و أحيانا يبقي معهم القيم على دير جبل صهيون بنفسه[٦٨٨].

جرت العادة عند نزول السفينة إلى الشاطئ والسماح للمسافرين بالنزول والتحرك، أن تصحبهم جماعة مملوكية مسلحة والحكام الثلاثة وذلك لحمايتهم من العربان في الصحراء الذين ينهبون ويسلبون المسافرين، ومعهم كذلك المترجمون والأدلاء. [٦٨٩]، وذلك أيضًا ما كان يحدث في الإسكندرية وخاصة مع السفراء والشخصيات الهامة التي تقصد القاهرة لمقابلة السلطان المملوكي، فكان والي الإسكندرية يطلب منهم دفع مبلغ من المال ليقدم لهم صك الأمان والحماية ويغادرون المدينة بصحبة عدد من المماليك والمترجم ومعهم الجنود والسلاح لحمايتهم من العربان على طول نهر النيل حتى الوصول إلى القاهرة [٦٩٠]، وفي موانئ النيل النهرية اتبع في بولاق نفس الإجراءات، حيث يرسو القارب على الشاطئ ويصعد على ظهره موظفون مماليك يسجلون أسماء المسافرين وتصل تلك المعلومات إلى والي القاهرة ثم يتم الحصول على تصريح من كبير التراجمة بالنزول إلى البر [٦٩١].

كما جرت العادة عند اقتراب السفينة من القلعة في الميناء أن تطلق السفينة الأجنبية طلقات نارية تحية للدخول ويرد عليها حراس القلعة بطلقات نارية أيضًا[٦٩٢]

([٦٨٨]) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٤٢ ؛

Souriano , Treaties on the holy Land , p. 5 , Casola , Pilgrimage to Jerusalem, pp. 220 – 230 , Fabri , The Wandering , vol 2 part 2 , pp. 219 - 220.

([689]) Fabri , Ibid , pp. 220 – 223.

([690]) Jean Vredan , Travel in the Middle ages , p. 48.

([691]) (arff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 101 , Wolff , op.cit , p. 81.

([692]) (arff , ibid , p. 93 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , pp.20 – 21.

وعند رحيل السفينة من الميناء يجب أن تقدم السفينة الأجنبية التحية للقلعة مرة أخرى، وتستعيد دفتها وشراعها وتحصل على الإذن بالرحيل، كما يتم فحص وتفتيش الأمتعة والسلع التي اشتراها المسافرون للتأكد من عدم وجود سلع غير التوابل التي ينقلها الحمالون من الفندق إلى الجمرك على ظهر الجمال. [٦٩٣]، ويتم التفتيش مرتين عند باب الفندق، ومرة أخرى عند باب الميناء قبل شحن البضائع على السفينة، وكان المشرفون يقومون بتفريغ الجوالات للتأكد مما بها من سلع وبعدها تنقل إلى المراكب الصغيرة التي تشحنها إلى السفينة الكبيرة المنتظرة بعيداً عن الشاطئ. [٦٩٤]

- المرحلة الثالثة:

تتناول تلك المرحلة دفع الرسوم الجمركية المقررة على السفن الأجنبية، وقد تنوعت تلك الرسوم المفروضة، حيث فرض على التجار الأجانب أن يدفعوا ٢ دوكة، أو واحدة ذهبية فقط كضريبة رأس يأخذها السلطان المملوكي [٦٩٥]، أما الحاج فيجب أن يدفع خمس دوكات ذهبية[٦٩٦]، وكذلك ٢ دوكة عن كل ما يحمل من أموال[٦٩٧] وأحياناً يدفع البعض ١٠% عن النقود التي يحملها، ولا يمكن التهرب من تلك الضريبة حيث يقوم الموظفون بتفتيش المسافرين تفتيشاً ذاتياً سواء رجل أو امرأة، وعندما حاول الرحالة مشيولم اليهودي تخبئة النقود في نعل حذائه وجدها عمال الجمرك وأخذوا منها ١٠ % فقط وأعادوا له الباقي. [٦٩٨]، أما فريسكو بالدي فقد استطاع تخبئة ٦٠٠ دوكة ذهبية ودفع الضريبة عن النقود الباقية معه حوالي ٢٠ %

([693]). Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard , pp. 67 -78

([694]) Fabri , Voyage en Egypte , tome 2 , p. 708.

([٦٩٥]) عزيز سوريال، الحروب الصليبية، ص ١٨٣.

Frescobaldi , A visit to the Holy Places , p. 38, Harff The Pilgrimage of Arnold Von Harff,p.93 ,See Also, Ziada, The Foreign relation of Egypt, p. 212.

([696]) Ghistele , Voyage en Egypte , p. 17, Harff, Ibid , p.93.

([697])Adler , Jewish Travelers, p. 223 , Frescobaldi , op.cit , p. 160 , See Also , Wolff , How Many Miles to Babylon ? , p. 73.

([698]) Adler , Ibid , p. 158 ,See Also , Wolff , Ibid.

فقط. [٦٩٩]، أما السلع والبضائع فكان لابد أن يدفع عنها حوالي ١٠ % فقط من قيمة البضائع الواردة والصادرة أيضًا. [٧٠٠]، وفي بيت المقدس (عند ميناء يافا) كان يجب على المسافر أن يدفع ٢ دوكة نظير الإقامة والضيافة وكذلك ٧.٥ دوكة أخرى في الجمرك، ثم يسجل اسمه لدى موظف الجمرك ثم ١٢.٥ دوكة ذهبية ضريبة رأس. [٧٠١] ونهاية القول أن قيمة الرسوم الجمركية قد اختلفت، فكان يؤخذ من التجار الأجانب العشر [٧٠٢] وأحيانا تصل إلي ٣٥ % من قيمة البضائع أو تقل إلي ٢٠ % [٧٠٣].

وهكذا كانت تصل إلى الشواطئ المصرية والشامية العديد من السفن الأجنبية المتنوعة والتي كانت المصدر الأساسي للدخل القومي ومصدراً هاماً لزيادة الأموال في الخزانة السلطانية، وذلك من خلال الرسوم والضرائب التي يدفعها الحجاج والتجار والمسافرون من كل أقطار العالم، وكان الدخل الأكبر ناتج عن الرسوم التي يدفعها التجار عن السلع والبضائع التي يصدرونها لمصر أو يستوردونها بأسعار مرتفعة وخاصة التوابل والسلع الشرقية. [٧٠٤] وقد بلغت جباية الضرائب من الجمرك ٣/١ من كافة الواردات التي تغذي الخزانة، كما كانت الرسوم في زيادة متنوعة فكان الذهب الذي يصل إلى الإسكندرية من أوربا لصنع العملات المملوكية تصل رسومه إلي ٦, ٣/٢ %، ومن تجارة الفضة تستوفي حوالي ٤.٥ % ثم وصلت إلى ٣.٥ %، وعن كل الفضة الواصلة إلى القاهرة يتقاضى السلطان المملوكي العشر، أما النحاس فرسومه في الإسكندرية وغيرها من المراكز ما يقارب الربع، أما الأخشاب والحديد والقار فكان السلطان يأخذ عنها ضريبة تقدر بحوالي الربع أيضاً، وعن كل مركب

([699]) Frescobaldi ,op.cit, p. 39.

([٧٠٠]) ابن مماتي، الأسعد بن مماتي، قوانين الدواوين، القاهرة، ١٩٤٣ م، ص ٣٢٦ ؛ القلقشندى، صبح الأعشي، ج ٣، ص ٤٦٣

Schefer ,Le Voyage de Jean Thenaud , p. 24,Harff ,op.cit , p. 93.

([701]) Fabri , the wandering , vol 2 part 2 , p. 213

([٧٠٢]) ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص ٣٣٦.

([٧٠٣]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٤٦٤.

([٧٠٤]) مارينو سانوتو، كتاب الأسرار، ص ١٤٨ – ١٤٩.

صغير أو كبير يبحر في البحر يحصل السلطان على ثلاثة دوكة ذهبية إلى ما يساوي ٣.٥ فلورنتي ذهب[٧٠٥]، وفي نهاية العصر المملوكي بلغ حصيلة الجمرك سنوياً إلى السلطان المملوكي حوالي ٢٥٠ ألف عملة ذهبية[٧٠٦]، كما كان للسلطان المملوكي رغبة في زيادة الدخل ورغبة في التسلط والتعسف بفرض رسوم وضرائب جمركية مرتفعة على التجار الأجانب وخاصة على البهارات والتوابل حيث تكلفت تلك السلع أكثر من نصف ثمنها الأصلي فكانت تحدث خسائر كثيرة يتحملها سكان الفلاندرز وألمانيا وإيطاليا وسائر البلاد الأوربية[٧٠٧].

- المنشآت التجارية:
- الفنادق والخانات:

سبق وأوضحنا الدوافع والأسباب التي جذبت الأجانب للقدوم إلى مصر والشام والتواجد بالدولة المملوكية وهي دوافع متعددة ومتنوعة، ولذلك زاد عدد الرحالة والوافدين إلى البلاد المصرية والشامية، فأصبح بها جاليات أجنبية كبيرة العدد ومتعددة الجنسيات، حيث أوردت كتب الرحالة الأجانب معلومات تفيد بوجود عدد كبير من الأجانب في المدن الرئيسية في مصر والشام مثل الإسكندرية، دمياط، القاهرة، دمشق، بيروت، بيت المقدس من الأرمن والأحباش واللاتينيين واليونانيين مسيحيين ويهود. [٧٠٨]

وقد اهتمت السلطات المملوكية بإقامة هؤلاء الأجانب، وذلك ببناء الفنادق

([٧٠٥]) مارينو سانوتو، كتاب الأسرار، ص ١٠٦ ؛ ١٠٧..

([706]) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 27

([707]) Dopp , Le Egypte , p. 75

([708]) (rescobaldi , A visit to the Holy Land , p. 47 , Wright , Early Travelers , pp. 294 – 295 , Nicolo , A voyage Beyond the seas , p. 85 ,See Also, Wolff , How many miles? , p. 119.

- هنا يجب أن نوضح أن الأجانب كان لهم مساكن اقاموا فيها سميت الفنادق فى مصر وفى الشام أقاموا فى أحياء خاصة بهم أما الخانات فقد خصصت للتجار المسلمين ولكن هناك بعض الخانات على طرق السفر سمح فيها بأقامة المسافرين سواء أجانب أو عرب. (الباحثة).

والخانات ليقيموا فيها فترة تواجدهم في الديار المملوكية، لكن لم تسمح لهم السلطات أبدا بالتواجد الدائم في القاهرة العاصمة، ولم يكن لهم فندق أو كنيسة لاتينية حتى أن البيازنة حينما حاولوا الحصول على تصريح من السلطان الأيوبي صلاح الدين الأيوبي ببناء فندق لهم في القاهرة لم يجب عليهم بالقبول أو بالرفض[٧٠٩]، وذلك الوضع استمر في العصر المملوكي، حيث كان السلاطين المماليك يحرمون على الأجانب شراء السلع الشرقية القادمة من الهند من أسواق القاهرة ولذلك لم يكن هناك سببٌ لتواجدهم في القاهرة لفترة طويلة تستدعي بناء فندق يقيمون فيه، وبالتالي لم تكن القاهرة مدينة جذب بالنسبة للأوربيين بالإضافة إلى التعليمات التي فرضها السلطات المملوكية عليهم ومنعتهم من التجول داخل البلاد والمدن بحرية فاقتصرت إقامتهم في الثغور والموانئ، وإذا انتقلوا إلى القاهرة فلم يكن ذلك إلا للضرورة القصوى، كعرض شكوى أمام السلطان أو تقديم التماس لطلب العدالة وحل بعض المشكلات القائمة بين الأجانب والمصريين، لذا لم يوجد في القاهرة سوى عدد محدود من الأوربيين، ولم يكن هناك داعياً لبناء فندق لهم ولكنهم أقاموا في أماكن للضيافة، سواء كانوا تجاراً أو حجاج أو قناصل لان إقامتهم كانت مؤقتة[٧١٠].

ودليلنا على ذلك أنه في عام ٧٤٧ هـ/ ١٣٤٦ م زار الراهب نيكولو بيجيبونسي Nicolo of Poggibosi القاهرة، ولم يجد مكاناً يقيم فيه أثناء زيارته للكنائس والأماكن المقدسة في مصر سوى منزل أحد المسيحيين اليونانيين قرب حي النصارى. [٧١١] وعندما قدم الرحالة فريسكو بالدي Frescobaldi وأصدقائه سيجولي Sigoli وجيوشي Gucci عام ٧٨٥ هـ/ ١٣٨٤ م أقام الجميع في منزل معد للحجاج مقابل أجر معين ولكنه ليس فندقاً للأجانب [٧١٢]، وكذلك السفير الفلورنسي فيليبس برانكاشي Fielice brancacci الذي زار مصر عام ٨٢٦ هـ /١٤٢٢ م أقام في

([٧٠٩]) هايد، تاريخ التجارة، ج ٣، ص ٣٠٨-٣٠٩.

([٧١٠]) هايد، تاريخ التجارة، ج ٣، ص ٣٠٨-٣٠٩ ؛ أحمد دراج، العلاقات بين المماليك والفرنج، ص ٣٧.

([711]) Nicolo , A voyage Beyond the seas, p. 87.

([712]) (rescobaldi , A visit to the Holy Land , p. 99.

منزل أحد الأقباط من جزيرة كريت وكان يدعى غزالة مقابل مبلغ من المال. [٧١٣]، أما الرحالة بيرو طافور الذي كان سفيراً لملك قبرص إلى السلطان المملوكي عام ٨٣٩ هـ/ ١٤٣٥ م قابل كبير مترجمي السلطان في القاهرة وسمح له بالإقامة في منزله لمدة يومين لحين مقابلة السلطان، وبعد ذلك أمر السلطان المترجم أن يوفر للضيف مسكناً مريحاً له ويقدم له ما يحتاجه. [٧١٤] أما الرحالة اليهودي ميشولم بن مناحم فأقام عند الناجيد (رئيس اليهود) في القاهرة في منزله عدة أيام، ثم جهز له وكيل الناجيد منزلاً مجهزاً بكل شيء ليقيم فيه وكان ذلك عام ١٤٨١ م [٧١٥]، كما أقام الرحالة الألماني فون هارف والذي زار القاهرة عام ٩٠٢ هـ/ ١٤٩٦ م أقام في منزل كبير التراجمة في ذلك الوقت نظراً لعدم وجود فندق للأجانب بها وأقام رفاقه معه كل اثنين في غرفة، ووصف تلك الغرف في المسكن بأنها حجرات ضيقة وليس بها شيء سوى أرض عادية فاضطر للنوم على الأرض[٧١٦].

أما الرحالة جان تينو Jean Thenaud والذي وفد إلى مصر عام ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م فقد أقام في مبنى أو خان قرب أحد المساجد، حيث لم يجد مكاناً للضيافة في القاهرة سوى ذلك الخان الذي كان مكاناً مرتباً ومنظماً وفيه نزل الغرباء إلى داخل المدينة لشراء لوازمهم واحتياجاتهم، وكان الأقباط اللاتين يقيمون عند الترجمان ويدفعون له أربعة دوكات في الشهر مقابل الإقامة. [٧١٧]، في حين يذكر الرحالة فون برندباخ Bernhard von breydenbah أنه عندما كان في القاهرة عام ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م قابل قنصل البنادقة في المدينة ويبدوا أنه اعتقد أن القنصل يقيم فيها بصفة دائمة وأن التجار يقيمون معه. [٧١٨] ولكن ذلك الرأي غير صحيح فقد جاء ذلك القنصل والتجار إلى القاهرة ليقدموا شكواهم إلى السلطان فقط وليس لديهم مكان ثابت

([713]) Dopp , Le Caire , tome 24 , p. 124.

([٧١٤]) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٦٥ ؛ ٦٩.

([715]) Adler , Jewish Travelers , p. 173.

([716]) Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , pp. 101 – 102.

([717]) 83.. Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p

([718]) Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard , p. 60.

يقيمون فيه، وذلك مؤكد لدى الرحالة فيلكس فابري حيث وضح أنه لم يكن الفضول هو السبب الوحيد للسفر إلى القاهرة، فقد كانوا يذهبون إليها التماسا للعدالة إذا كلفت المعاهدات الدولة الأجنبية الحق للجوء إلى السلطان مباشرة للتظلم ودفع الشكاوى من الموظفين، أو من حكم أصدرته السلطات المحلية في قضية ما، وكان قنصل الإسكندرية في القاهرة يعرض شكاوى مواطنيه على السلطان لحلها أو يقدم مطالب حكومته وفي ذلك الوقت كان القنصل بالقاهرة ليشتكي للسلطان سوء معاملة التجار في الإسكندرية وإجبارهم على شراء التوابل وما فيها من شوائب دون غربلة كما هو متفق عليه في المعاهدات التجارية[٧١٩].

على أية حال فقد أقام الأوربيون في مباني خاصة حتى يتسنى لهم إتمام أعمالهم على أكمل وجه في الثغور والموانئ وقد سمي ذلك المبني باسم الفندق ويرجع ذلك النوع من المباني إلى بداية العصور الوسطى، حيث انتشرت في منطقة البحر المتوسط، وذلك تسهيلا للتجار الوافدين والعمل على راحتهم أثناء تواجدهم في الدولة وذلك يعني أن الفندق في بدايته كان مخصصا للتجار فقط، ثم أقام فيه جميع المسافرين فيما بعد فكان مقراً لإقامة الأجانب الغرباء عن الدولة من جميع الجنسيات والطوائف المختلفة ومسكناً مريحا لهم تتوفر فيه الخدمات اللازمة للمسافرين[٧٢٠]، وكان أول فندق أنشئ في الإمبراطورية البيزنطية وأطلق عليه Byzantime mita ولم يكن مسموحاً للتجار الأجانب أن يقضوا فيه أكثر من ثلاثة شهور وهي المدة التي حددتها الإمبراطورية البيزنطية لإنهاء الأعمال التجارية. [٧٢١] ويجدر بنا الإشارة إلى أن مصطلح الفندق أو Fundaco قد شاع استخدامه في القرن الرابع عشر الميلادي وهو لفظ مشتق من الكلمة اليونانية Pandokeion أو اللاتينية Xenodochim ومعناها المسكن أو المأوى الذي يقيم فيه الغرباء ويقابلها في الإيطالية Fondaco[٧٢٢].

([719]) Fabri , Le Voyage en Egypte , vol 3 , p. 33.

([720]) The New Encyclopedia Britain , London , 1974 , vol 8 , p. 1117.

([721]) Lopez , Medieval trade in Mediterranean world , pp. 84 – 85.

([٧٢٢]) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن ٤ هـ، ج٢، ترجمة محمد عبد الهادي، الألف كتاب، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٢٨٤ ؛ عمر كمال توفيق، مجتمع الأسكندرية في العصور الوسطي،

وقد كثر عدد الفنادق في الدولة المملوكية وخاصة في المدن الساحلية، وحمل كل فندق اسم الجالية التي تقيم فيه ولا تزاحمها جالية أخرى فقد وجد في الإسكندرية فندقان للبنادقة[٧٢٣]، كما خصص فندق للجنوية وفندق لأهالي نابولي وفندق لأهالي كريت وفندقاً لأهالي برشلونة وآخر لأراجون وقطالونيا وفندق آخر للبيازنة وغيرهم من الجنسيات الأخرى[٧٢٤]، وهناك فندق آخر لأهالي مارسليا والذي أقام فيه الرحالة فريسكو بالدي وزملاؤه، حيث استأجروا أربعة غرف فوق الساحة[٧٢٥].

كان يوجد في دمشق خان للمسافرين الوافدين ينعمون فيه بالراحة والأمان ولهم الحق في حفظ وتخزين البضائع والسلع وكان يسمى خان Berkot خان بركوت (خان برقوق)، وذكر لابروكيير la broquiere أن الفندق قد بناه شخص فرنسي وذلك بسبب وجود شعار (رنك) زهرة الزنبق منقوشاً على أحد جدران الخان، ويبدو أنه كان رجلا شهماً وشجاعاً وذو سمعة طيبة بين سكان الشام ويتميز بالقوة العسكرية والحربية ولذلك لم تستطع جيوش تيمورلنك أن تدخل دمشق في عهده ويقرر أهل الشام أنه لو مد في عمره لما تمكن تيمورلنك من دخول بلادهم[٧٢٦].

الأسكندرية، ١٩٧٢ م، ص ٢٩٧ ؛ Dopp , Le Egypte , p. 76.

(723)Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 93 , Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten , p. 436 , Souriano , Treaties on the holy Land , p. 199.

(724) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 22.

(725) Wolff , How many miles? ,p. 82.

(٧٢٦) Wright , Early Travelers , pp. 294 -295.

– الرنك: هي كلمة فارسية تنطق رنج بمعني لون وقد جرت العادة عن تأمير المملوك أن يعطي رنكا أو شعارا يشير إلي وظيفته، ويرجع الأصل في استخدام الرنوك إلي السلطان الصالح نجم الدين أيوب، انظر: إبراهيم علي طرخان، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطي، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٤٨٥،٤٩٢ ؛ أحمد عبد الرازق، الرنوك الإسلامية، المجلة التاريخية، م١١، ١٩٧٤، ص ٤٥.

- هنا يتضح لنا أن الخان كان يسمى خان برقوق نسبة إلى الظاهر برقوق، وما ذكره عن قوته وشجاعته وتصديه لتيمور لنك ينطبق تماما على السلطان المملوكي الظاهر برقوق أما شعار الزهرة فرغم أنه استعمل في الملكية الفرنسية فهو قبل كل شيء كان أحد رنوك أمراء المسلمين في العصور

لم يقتصر الأمر على ذلك فحسب بل حرصت السلطات المملوكية على توفير عنصر الأمان والراحة للمسافرين والتجار والرحالة، فأنشأت الخانات المتعددة بطول البلاد وعرضها، وكانت مجهزة بالمؤن والشراب وغرف النوم للراحة وتلك الخانات تشبه محطات الترانزيت لراحة المسافرين والحصول على الأمان والتموين لاستكمال الرحلة، ففي مدينة بلبيس استطاع الرحالة ميشولم أن يقيم في خان به غرفة مجهزة وبها منضدة وكرسي وشموع بالقرب من المعبد وكان يملكه أحد اليهود الأغنياء الشرفاء[٧٢٧]، وفي أريحا وجد خان لسكن الأجانب فيه حدائق البلح والتفاح ويستطيع المسافر هناك شراء ما يلزمه من الطعام[٧٢٨]، وفي الأردن كانت توجد دار للضيافة أعدها السلطان خصيصاً للرحالة قرب الجبل الذي كان يطلق عليه البرج الأحمر وكان بداخل الخان كنيسة صغيرة جميلة يقيم فيها قساوسة يونانيون وعلى بعد ميلين آخرين توجد دار ضيافة أخرى ينزل فيها الرحالة والمارة حيث يضعون أمتعتهم ودوابهم[٧٢٩]، وفي يافا أيضًا وجد خان للحجاج قد أقامه الدوق جود فري عندما استولي على القبر المقدس وهو مجهز أحسن تجهيز وبه عدد كبير من الغرف بعضها مخصص للرجال والبعض الآخر مخصص للنساء[٧٣٠].

كان يوجد في مدينة الخليل خاناً متسع وبه حظيرة واسعة للحيوانات وغرف للنوم والراحة في الأعلى و في الأسفل ساحة واسعة مغلقة ببوابة عظيمة، وتلك البناية كانت تشبه الدير الحصين ولا يعيش فيها إلا الغرباء فقط[٧٣١]، وفي مدينة بيت المقدس أنشأ الظاهر بيبرس عام ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م خان خارج بوابة المدينة سمي باسمه وفوض أمر بنائه للأمير جمال الدين محمد بن بهادر ولما أتم الخان أوقف عليه خراج

الوسطى. (الباحثة).

([727]) Adler , Jewish Travelers, p. 175.

([728]) Nicolo , A voyage Beyond the seas , p. 76.

([729]) Potvin , Oeuvres de Ghillebert , pp. 35 , 37.

([٧٣٠]) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٤٢.

([731]) Fabri , the wandering , vol 2 part 2 , p. 410.

أرض مجاورة له وبنى له طاحوناً وفرناً وجعله لخدمة المسافرين والمشاة[٧٣٢]، وكان هناك أيضًا مستشفى فرسان القديس يوحنا بجوار كنيسة الضريح المقدس، والذي كان مستشفى لعلاج المرضى وبعد أن تركه الفرسان وطردوا من بلاد الشام، أصبح مأوى للحجاج والمسافرين الأجانب والفقراء أيضًا وذلك المستشفى كان يعيش فيه أكثر من ألف شخص ويحصل على مبلغ صغير من المال يدفعه المسافرون للقيم على جبل صهيون[٧٣٣]، وذلك المستشفى كان لسكنى الحجاج والمسافرين الرجال، أما النساء فكن يقمن في منزل صغير قرب دير جبل صهيون[٧٣٤]، ويبدو أن رجال الدين الإيطاليين كانوا أكثر حرية في الإقامة في بيت المقدس حيث سمح لرجال الدين بالإقامة في مستشفى القديس يوحنا، أما العلمانيون فكانوا يقيمون في منزل في منتصف الطريق بين الضريح المقدس وجبل صهيون، أما قبطان السفينة كان يقيم في دير جبل صهيون ومعه أثنان من الحجاج ويتمتع فيه بالراحة والخدمة الجيدة من قبل الأخوة الرهبان [٧٣٥]، وكان المكان قديما يسع ألف حاج، لكن جزءاً كبيراً منه محطم والجزء الباقي يسع فقط لأربعمائة حاج فقط[٧٣٦] وفي بيت المقدس أيضًا يوجد خان آخر بجوار القبر المقدس يديره الرهبان اليونانيون ويقيمون فيه بطهي شتى أنواع الطعام بطرق عديدة ويبيعونه للنصارى[٧٣٧].

وجد في رام الله خان لإقامة المسافرين، حيث دخل الحجاج الأوربيون منزل له باب قصير وضيق وقام الموظفون على الباب بإحصاء الداخل والخارج، وفيه وجد فناء واسع جميل به غرف متسعة ونبع ماء نقي، وذلك النزل قد اشتراه الدوق فيليب

([٧٣٢]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٢١ ؛ المقريزي، السلوك، ج١ ق٢، ص ٤٩١ ؛ الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٨٧

([733]) Frescobaldi , , A Visit to the Holy Places , , p. 127 , Casola , Pilgrimage to Jerusalem, p.244 , Ludolph , Description of the Holy land , p. 107.

([734]) Souriano ,Treaties on the holy Land ,p. 5 , Fabri , the wandering , vol 1 part 2 , p. 395.

([735]) Vredan , Travel in the Middle ages , p. 109.

([736]) Fabri , the wandering , vol 1 part 2 p. 395.

([٧٣٧]) بيرو طافور، رحلة طافور، ص ٤٣.

دق برجنديا لسكني الحجاج وجعل الأخوة الرهبان في دير جبل صهيون مسئولون عنه لذلك كان يسمى نزل الحجاج، ويحصل المنزل على أموال من خلال ما يدفعه الحجاج مقابل الإقامة به رغم عدم وجود فراش ولا كراسي في الغرف فيضطر المسافر إلى شراء فراش للنوم عليه. [٧٣٨]، ولكن كان هناك بعض الخانات الأكثر سوء وقذارة وتشبه الكهوف في الجبال كما وجدت في يافا ونابلس حيث يذكر الرحالة الراهب فيلكس فابري وغيره أنه عندما نزل الحجاج ميناء يافا أقاموا في خانات تشبه الكهوف أو القبر وكانت مليئة بالقاذورات والأوساخ ولم يكن هناك مكان آخر يقضون فيه الليل ولذلك أضطر هو وزملاءه إلى تنظيف المكان لينناموا فيه فهو خان صغير وحقير وقذر ولا يصلح للضيافة والسكن مما جعل الحجاج يشعرون بالضيق والاشمئزاز[٧٣٩].

لقد ترك لنا زوار مدينة الإسكندرية وصفا عاما للفنادق، حيث كانت ذات تصميم معماري واحد تقريبًا على مر العصور وكان الفندق مبنياً مملوكياً خالص ويخضع للسلطات المحلية وليس ملكا للجالية المقيمة فيه بل هو هبه من الدولة للأجانب، والفندق عبارة عن مبنى مربع الشكل، كبير الحجم يشبه الحصن أو الصرح ويتكون من عدة طوابق فالطابق الأول الأرضي به حوانيت ومخازن لحفظ البضائع والسلع وتتم فيه عملية البيع والشراء، و خصص لكل تاجر مخزن يضع فيه بضاعته ويغلق عليها وفيه أيضًا تعقد الصفقات التجارية، أما الطوابق العلوية فهي مخصصة لمبيت الأجانب وبها غرف للنوم معدة لراحة النزلاء. [٧٤٠]، وتطل الغرف على فناء داخلي واسع قد خصص لتفريغ البضائع والسلع وتصنيفها والاستعداد لعملية التخزين

([738]) Casola , A voyage Beyond the seas, p.237,Fabri ,The Waderning , vol 1 part 1, p. 247.

([739]) Casola , Ibid,pp. 232,234 -235 , Fabri , Ibid , p. 224 , See Also , Davis , Breydenbah and his Journey to the Holy Land , p. xiv.

([740]) Ghistele Voyage en Egypt, pp.113 -114, See Also, Wolff ,How Many miles? ,p.74 ,Vredan , Travel in the Middle ages , p. 116.

في المخازن[٧٤١]، وفي الجزء الآخر من الفناء توجد حديقة زرعت بها أشجار غريبة مجلوبة من جهات عديدة وبها أنواع متنوعة من النباتات والزهور التي توجد في أوطان هؤلاء الأجانب لتذكرهم ببلادهم وتعطي الإحساس بالراحة كما تربى فيه بعض الحيوانات المستأنسة. [٧٤٢]، ولما كانت تلك الفنادق قد أقيمت خصيصا لراحة النزلاء والغرباء الأجانب فلا يشعرون بالضيق أو الغربة، لذا أقيمت في كل فندق حمام وفرن لصنع الخبز وبها كنيسة صغيرة لأداء الطقوس الدينية فضلًا عن السماح لهم بوجود النبيذ مما يسمح لهم العيش بحرية تامة داخل الفندق[٧٤٣].

أتبعت السلطات المملوكية نظاماً خاصاً بإدارة تلك الفنادق عامة، فهي التي تملكها وحدها ولا سلطان لأي جالية عليها وتلك الأنظمة التي وضعتها السلطات المحلية كانت إجراءات أمنية لحماية الأجانب والحفاظ على أرواحهم وأموالهم، حيث تحكمت السلطات المحلية في إغلاق الفندق ليلا من الخارج من غروب الشمس حتى صباح اليوم الثاني، ويقوم بذلك العمل حارس مملوكي تعينه السلطات المحلية، وذلك خوفاً من عمليات السطو على الفندق وحماية النزلاء ليلًا[٧٤٤]، كما كانت تغلق أبواب الفنادق وقت صلاة الجمعة ولمدة ساعتين أو أكثر إلى حين الانتهاء من الصلاة، كما منعت النزلاء من شرب الخمر خارج الفندق منعاً للتصادم مع المسلمين وعدم إيذاء مشاعرهم الدينية[٧٤٥]، وقد شهد كل من رأى تلك الفنادق بالروعة والجمال، وأنها

([741]) Ghistele ,Ibid ,p. 113-114 , Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , p. 38.

([٧٤٢]) بنيامين التطيلي، رحلة بنيامين، ص ١١ ؛ انظر أيضا، شاريل ديل، جمهورية البندقية، ص ١٤٢ ؛ Wolff , op.cit , p. 74

([٧٤٣]) صبحي لبيب، "الفندق ظاهرة سياسية و اقتصادية وقانونية، ندوة مصر وعالم البحر المتوسط"، دار الفكر، ١٩٨٥ م، ص٤٩٢ ؛ نعيم زكي، طرق التجارة، ص ٢٩١ ؛

Wolff, How Many miles? op.cit,p.74.

([٧٤٤]) ابن عساكر، الفضل المأثور، ص ٢٢ ؛ Potvin , Wright ,Early Travelers , p. 295 , Oeuvres de Ghillebert , p. 109 , Schiltberger , The bondage and Travel , p. 62.

([745]) Frescobaldi , op.cit , p. 41 , Potvin , op.cit , Ibid.

أجمل مبان شيدت في ذلك العصر[٧٤٦]، ونتيجة لعناية الدولة بإنشاء تلك الفنادق تمتعت بعضها بشهرة فائقة ومكانة مرموقة لدرجة أن بعض الجمهوريات الإيطالية أنشئت فنادق في بلادها على غرار الطراز المعماري المصري للتجار الألمان في أواخر العصور الوسطى[٧٤٧].

نخلص مما سبق أن الرحالة الأوروبيون قد أمدونا بمعلومات عن مصادر المياه وأهميتها والمشاريع التي قامت عليها لحمايتها من الضياع، وكذلك ذكر طرق زراعة بعض المحاصيل وزراعتها، ولكنهم أغفلوا ذكر مساحة الأراضي الزراعية وتقسيمها وأنواعها ونظام الملكية الزراعية، ولم يلاحظوا أيضاً مدي التغيير الذي طرأ على الأراضي الزراعية من تدهور واضمحلال، كما كثرت الأسواق في الدولة المملوكية نتيجة لاهتمام السلطات المملوكية بالتجارة الداخلية والخارجية ونشر الاستقرار السياسي لفترة طويلة و شهدت المدن نمواً سكانياً ملحوظاً منذ بداية الحكم المملوكي فساهم ذلك في زيادة النشاط الاقتصادي وازدهار الحياة الاقتصادية، وكثرة الأسواق وتنوعها في المدن التي كانت تموج بالحركة والنشاط وتكتظ بأصناف البضائع والسلع المحلية والمستورة، ذلك وقد تعددت وتنوعت الأسواق تعدداً ظاهراً من حيث طبيعة تلك الأسواق والهدف منها، فهناك أسواق دائمة، وموسمية وهناك أسواق متخصصة في بيع نوع معين ومحدد من السلع وأسواق أخرى كان يباع فيها أنواع مختلفة من السلع بدون تصنيف. ولكن ذلك النمو صاحبه تدهور عام بسبب الفتن والثورات والاضطرابات، إما رغبة في الوصول للسلطة أو للحصول على زيادة مالية للأمراء والمماليك أو للسلطان ذاته بالإضافة إلى تولي السلطة بعض السلاطين الضعفاء صغار السن وحينما كان السلطان المملوكي يعجز عن سد حاجة المماليك والجند يصب جام غضبه على الشعب وذلك بفرض الضرائب الباهظة، أو بالمصادرات بدون أسباب من أجل سداد العجز المادي في خزانة الدولة وتلي ذلك سياسة الطرح ويقصد بها طرح السلع على التجار بالأسعار التي يحددها السلطان

---

(746)Atiya , the latter crusades , p. 182.

(٧٤٧) صبحي لبيب، الفندق ظاهرة، ص ٢٩٢.

بنفسه كما يحدد أنواع معينة من السلع والمنتجات، ثم سياسة الاحتكار الاقتصادي التي مارسها السلاطين المماليك فأصبحوا تجاراً جشعين وأصبح الاحتكار التجاري نظاماً سار عليه السلاطين فيما بعد، حدث ذلك في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، حيث ظهرت ملامح التدهور والاضمحلال الاقتصادي والسياسي في تلك الفترة، فأصبحت الحكومة غير مستقرة واصطبغ العصر بصبغة خاصة من عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي وفي تلك الفترة أيضًا اتجه السلاطين المماليك إلى الاشتغال بالتجارة والنزول إلى الميدان التجاري بهدف زيادة موارد الدولة والخروج من الأزمات المالية المتكررة مما أدي في نهاية الأمر إلى سيطرة السلطان المملوكي على الموارد الاقتصادية بصفة عامة واحتكر معظم السلع والمنتجات الهامة مثل الغلال والتوابل والبهارات والسكر والتي كانت تدر أرباحاً طائلة وفرضها على جميع التجار بأسعار يحددها بنفسه وأثار غضب وسخط الجميع.

كما شهد الرحالة بحسن معاملة السلطات المملوكية للوافدين الأجانب في فترات الهدوء ولكنهم تعسفوا في إجراءات دخول السفن إلي الموانى المصرية والشامية وفرضوا قواعد صارمة علي الجميع، في حين قامت تلك السلطات بتوفير الفنادق و الخانات وهما من المنشآت التجارية والاجتماعية مخصصان لإقامة الغرباء، فالأجانب كانوا يقيمون في الفنادق، والعرب والعجم كانوا يقيمون في الخانات والقياصرة، باستثناء بعض الخانات أو النزل التي انتشرت على الحدود حيث يستريح فيها المسافرين للاستعداد لاستكمال الرحلة، كما كانت تلك الفنادق تعتبر مصرفا ماليا يودع فيه التجار بضائعهم وأموالهم ومأوى مناسب وآمن للأوربيين بصفة خاصة كما يتضح أن السلطات قد اهتمت كثيراً براحة المسافرين ووفرت لهم سبل الراحة والأمان في البلاد.